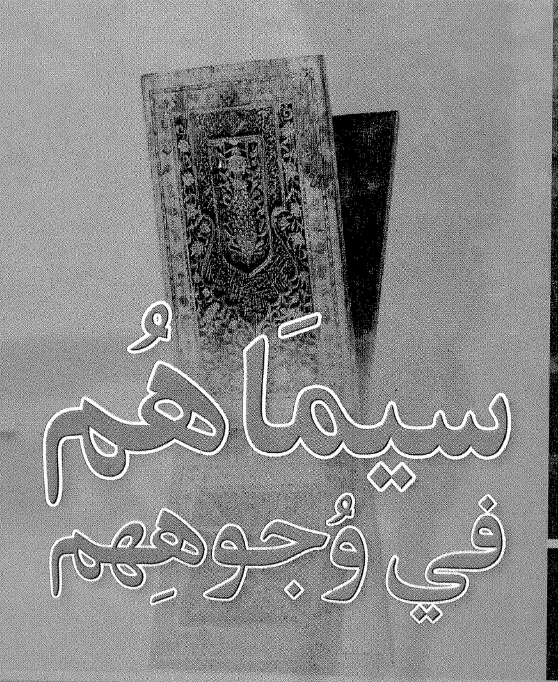


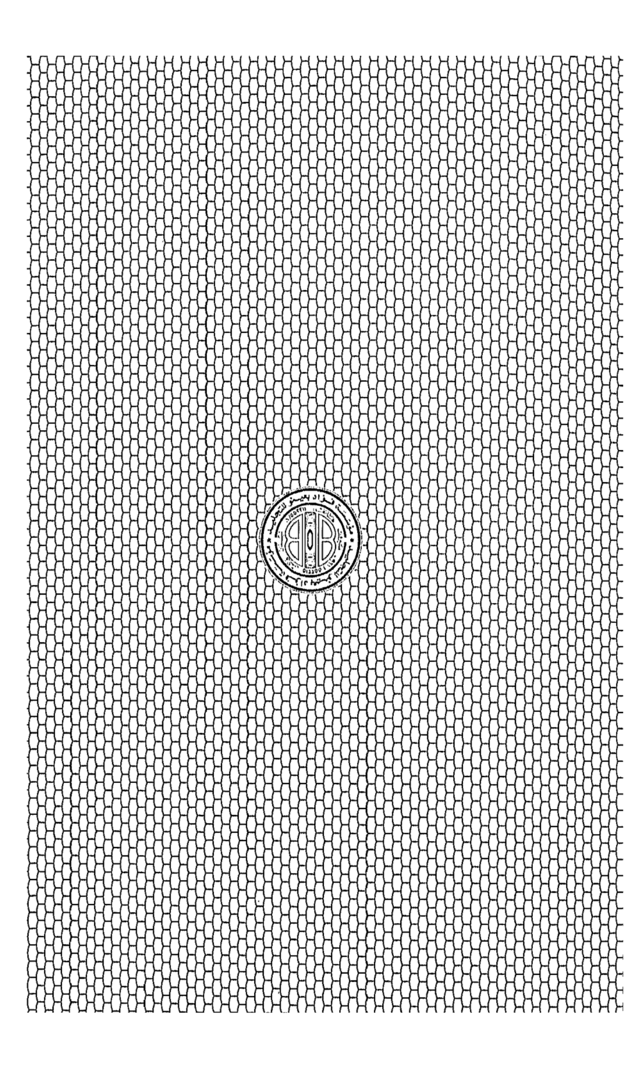
سيماهم في وجوههم

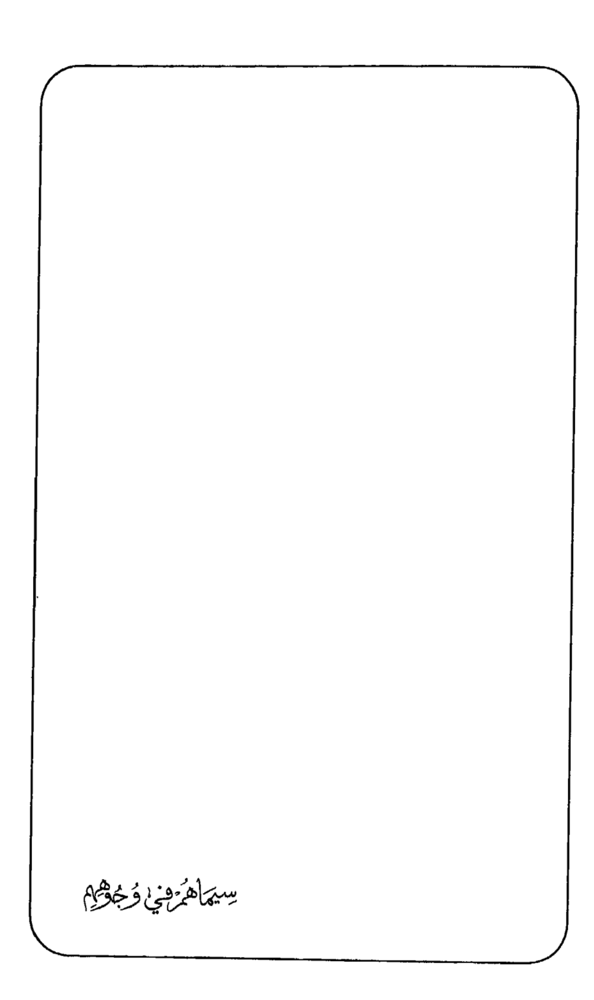
د. عائض بن عبد الله القرني

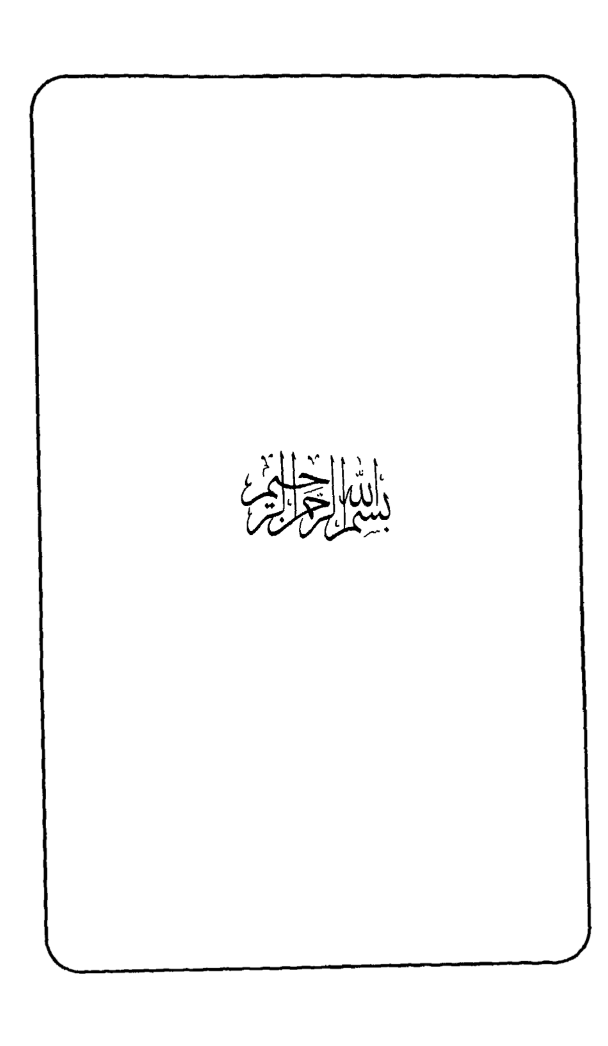
دار ابن حزم



منحة 2006
SIDA
السويد




سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ


بسم الله الرحمن الرحيم

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم

د. عائض بن عبد الله القرني

دار ابن حزم

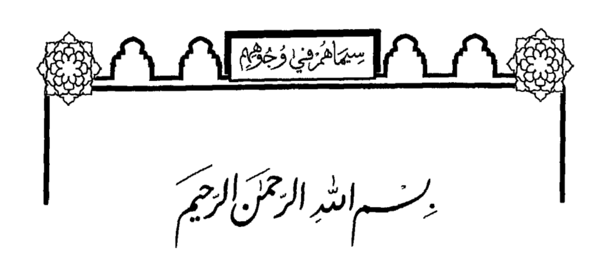
الطَّبْعَةُ الأولىٰ

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

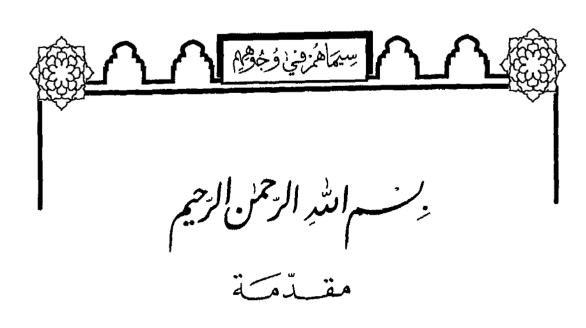


المؤلف في سطور

- عائض بن عبدالله بن عائض آل مجدوع القرني.
- من مواليد عام ١٣٧٩هـ.
- حصل على الشهادة الجامعية من كلية أصول الدِّين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على الماجستير في الحديث النبوي عام ١٤٠٨هـ، وعنوان رسالته: «البدعة وأثرها في الدراية والرواية».
- حصل على الدكتوراه من جامعة الإمام عام ١٤٢٢هـ بعنوان: «المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم للقرطبي - دراسة وتحقيق».
- له أكثر من ثمانمائة شريط كاسيت في الخطب والدروس والمحاضرات والأمسيات الشعرية والندوات الأدبية.

- أَلَّف في الحديث والتفسير والفقه والأدب والسيرة والتراجم.

- حضر عشرات المحاضرات والأمسيات، وحضر مؤتمر الشباب العربي المسلم، ومؤتمر الكتاب والسنَّة بالولايات المتحدة الأمريكية، وحاضر في الأندية الأدبية والرياضية، وحاضر في الجامعات والملتقيات الثقافية.



مقـدّمـة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له، رب السماوات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله البشير النذير، والسراج المنير ﷺ وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن من العقائد المقررة في الإسلام: حب الصحابة من المهاجرين والأنصار، والذين اتّبعوهم بإحسان، واعتقاد فضيلتهم وصدقهم، والترحم على صغيرهم وكبيرهم، وأولهم وآخرهم، وصيانة أعراضهم وحرماتهم، فذلك أمر ضروري، وهو أحد الضروريات الخمس التي جاءت الشريعة بالمحافظة عليها، وضبط حقوقها، والأخذ على يد من هتكها، وقد قال النبي ﷺ في مجمع الحج: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام**

كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا فليبلّغ الشاهد الغائب»[1].

فهتك عرض المسلم والجناية عليه عظيم عند الله ورسوله والمؤمنين، وهو من كبائر الذنوب، ومن التشبه بالمنافقين، وأعظم منه غمس الألسنة والأقلام في أهل العلم ومحاولة إسقاط قدرهم بأوهام من هنا وهناك، والإيغال بالدخول في نياتهم ومقاصدهم، والصد عن سبيلهم والاستخفاف بهم.

فهم خير الناس للناس، وأفضل تابع لخير متبوع، وهم الذين فتحوا البلاد بالسنان والقلوب بالإيمان، ولم يعرف التاريخ البشري منذ بدايته، تاريخاً أعظم من تاريخهم، ولا رجالاً دون الأنبياء أفضل منهم ولا أشجع، ومن داخله شك في هذا، فلينظر في سيرهم على ضوء الأحاديث الصحيحة والآثار الثابتة، يرى أمراً هائلاً من حال القوم وعظيم ما آتاهم الله من الإيمان والحكمة والشجاعة والقوة.

وحين ضن غيرهم بالنفس والمال، واستثقلوا مفارقة الأهل والولدان، استرخصوها في إقامة الدين وتمكين الأمم والشعوب من العيش في أمن ورغد تحت حكم الإسلام، فلا كان ولا يكون مثلهم، فهم غيظ الأعداء، وأهل الولاء والبراء، وأنصار الدين، ووزراء رسول رب العالمين.

وقد اصطفاهم الله لصحبة نبيه ونشر دينه، فأخرجوا من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور أهل الطغيان إلى عدل الإسلام، وعلى

---

(١) رواه البخاري [٦٧] ومسلم [١٦٧٩] عن أبي بكرة، رضي الله عنه.

أيديهم سقطت عروش الكفر، وتحطمت شعائر الإلحاد، وذلت رقاب الجبابرة والطغاة، ودانت لهم الممالك.

وقد اتفق أهل العلم على أنهم خير الناس بعد الأنبياء؛ فقد جاء في الحديث عن عبدالله، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**خير الناس قرني...**»[1]. وأفضل الصحابة: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، وأدلة هذا كثيرة وعامة أهل العلم على هذا، وقد جعل الله -جلَّ وعلا بقاء الصحابة أمنة للأمة، فإذا ذهب قرنهم وانقرض جيلهم حلَّت بمن بعدهم الفتن، وظهرت البدع، وفشا الجور والفساد. ففي «صحيح مسلم»[2] عن أبي موسى قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال: فجلسنا فخرج علينا فقال: «**ما زلتم ههنا؟**» قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب. ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: «**أحسنتم أو أصبتم**» قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً مما يرفع رأسه إلى السماء فقال: «**النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أمتي ما يوعدون**».

وهذا دليل على فضلهم، وعظيم ما دفع الله بهم من البدع والفتن والجور والفساد، فلا جرم أن جعلهم الله وزراء نبيه وحزب خليله.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) رقم (٢٥٣١).

قال عبدالله بن مسعود، رضي الله عنه: (إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب الصحابة خير قلوب العباد فجعلهم الله وزراء نبيه يقاتلون على دينه)[1].

وقال ابن أبي حاتم: (فأما أصحاب رسول الله ﷺ فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله عزَّ وجلَّ لصحبة نبيه ﷺ ونصرته، وإقامة دينه وإظهار حقه، فرضيهم له صحابة، وجعلهم لنا أعلاماً وقدوة، فحفظوا عنه ﷺ ما بلغهم عن الله عزَّ وجلَّ، وما سنَّ وما شرع، وحكم وقضى، وندب وأمر ونهى وأدب، ووعوه وأتقنوه ففقهوا في الدين، وعلموا أمر الله ونهيه، ومراده بمعاينة رسول الله ﷺ، ومشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتأويله وتلقفهم منه واستنباطهم عنه، فشرفهم الله عزَّ وجلَّ بما مَنَّ عليهم وأكرمهم به من وضعه إياهم موضع القدوة، فنفى عنهم الشك والكذب، والغلط والريبة، والغمز، وسماهم عدول الأمة، فقال عزَّ ذكره في محكم كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ففسر النبي ﷺ عن الله عزَّ ذكره قوله: ﴿وَسَطًا﴾ قال: **«عدلاً»**، فكانوا عدول الأمة وأئمة الهدى وحجج الدين ونقلة الكتاب والسنة. وندب الله عزَّ وجلَّ إلى التمسك بهديهم والجري على منهاجهم والسلوك لسبيلهم والاقتداء بهم فقال:

---

(١) رواه الإمام أحمد [٣٧٩١] عنه وسنده حسن.

﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ...﴾ [النساء: ١١٥][1].

فمن انطوت سريرته على محبتهم، ودان الله تعالى بتفضيلهم ومودتهم، وتبرأ ممن أضمر بغضهم، فهو الفائز بالمدح الذي مدحهم الله تعالى فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وأما من سبهم، وانتقص منهم ومن قدرهم، وحكم على أكثرهم بالردة، وزعم أنهم بدلوا وغيروا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وها نحن هنا نجلي شيئاً من فضائلهم، ونذكر بعضاً من مآثرهم، مع إيراد بعض الأخبار عن مجموعة منهم، ثم من سار على منهجهم، وسميت كتابي هذا: «**سيماهم في وجوههم**» تيّمناً بالآية الكريمة، راجياً الرب تعالى أن يسلكني في سبيلهم، وأن يحشرني معهم، وأن يلحقنا بهم في دار الكرامة، وللصحابة خصائص وصفات فاقوا بها من بعدهم، وجاوزوا بها غيرهم، فما هي هذه الخصائص التي فُضلوا بها على غيرهم؟

بلّغ الأشواق والحب الصحابه ... سادة القوم وأرباب النجابه

هم حماة الدين أبطال الردى ... بل غيوث البذل بل آساد غابه

حبهم دين ومن يبغضهم ... ربنا في ناره الأخرى أذابه

ذبّ عن أعراضهم إن كنت من ... ضربهم لا تعتدي كل ذبابه

واطلب الآثار منهم إنهم ... علماء الدين فتواهم إصابه

---

(١) انظر كتاب «الجرح والتعديل» (٧/١).

فمن خصائص هذا الجيل:

١ ـ أن الله زكاهم، ومَن بعدهم فإنه يحتاج إلى من يزكيه، فلا نحتاج معهم لكلام العالم يحيى بن معين، ولا لأبي حاتم، ولا لابن حبان، بل لكلام الله عزَّ وجلَّ، وهو يزكي أصحاب الرسول ﷺ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

فهو ﷺ مع أصحابه مزكّون طاهرون، زكّاهم الله في التوراة والإنجيل، ثم زكاهم في القرآن، والله عزَّ وجلَّ قد تكفل بتطهيرهم وتزكيتهم.

وكان ابن مسعود، رضي الله عنه وأرضاه، يقول: عليكم بأصحاب محمد ﷺ، فإن الله نظر في قلوب عباده فوجد قلب محمدٍ أصفاها وأتقاها، ثم نظر في قلوب الناس فوجد قلوب أصحاب الرسول ﷺ أصفى القلوب وأتقاها فاختارهم لصحبة الرسول ﷺ.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

والذين جاهدوا معه، هم: أصحابه، قتلوا بين يديه، وقطعوا في بدر وفي أُحد لرفع لا إله إلاَّ الله.

وتستمر التزكية العاطرة من الواحد الأحد في كتابه ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ

﴿وَرِضْوَانًا﴾، هذا وصف المهاجرين، خرجوا من مكة، طردتهم الجاهلية فهم صورة ناصعة.

فمنهم: صهيب بن سنان، رضي الله عنه وأرضاه، أخرجوه وطاردوه بالسلاح فقال للمشركين: دعوني وخذوا كل مالي، فقبلوا وتركوه ووفد صهيب على الرسول ﷺ، وكل صهيب أسى، وكله جوع، وكله ظمأ، وكله سهاد، لكن في سبيل الله، فلما رأى وجهه ﷺ قال: «**ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى**»، فأنزل الله المبايعة فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

وأتى مصعب بن عمير، ترك لحافه الوثير، وفراشه الدافىء، وذهبه وفضته لأمه المشركة العجوز، فلما رآه ﷺ دمعت عيناه، وقال: «**والذي نفسي بيده لقد رأيت مصعباً من أغنى أهل مكة**» ثم ترك ذلك كله لله، ومع ذلك ما كفى مصعباً: أن يترك أمواله ودوره وسكنه، بل زاد على ذلك بأن قطع جسمه في أُحد، فأُتي ببردة لتكون كفنه، فكانوا إذا غطوا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطيت رجلاه بدا رأسه، فبكى ﷺ مرة أخرى عند هذا الجثمان.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

هذه ميزة للصحابة ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فليس لهم مطلب، لا كرسي ولا سلطة ولا كيان، ولا هدف آخر.. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، أولئك هم الصادقون.

ثم التفت الخطاب إلى الأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ

مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

قال أهل التفسير: فعلم ما في قلوبهم من الإخلاص.

وقال غيرهم: فعلم ما في قلوبهم من الحب لله.

والصحيح: علم ما في قلوبهم من الخير.

يقول بعض الأدباء: كأني بالصحابة، أي مشاعر عاشوها؟ يسمعون نداء الله من فوق سبع سماوات يقول لهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ ويقول سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

مَنْ لي بمثل سيرِك المدلّلِ   تمشي رويداً وتجي في الأولِ

الأولون، يوم الفقر والعوز، يوم الشدة، يوم التهديد، يوم تقف الجاهلية كلها ضد الرسول ﷺ، يوم تهدده الكرة الأرضية، تهدده اليهودية والنصرانية والصابئة والمجوس، فيقف معه أبو بكر وعمر، والصفوة الأولى.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ والعجبُ ليس في رضوا عنه، لكنه في رضي عنهم! ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهو خيرٌ من فوز الدنيا وما فيها.

أما الأحاديث في فضلهم، رضوان الله عليهم، فكثيرة. منها ما جاء من حديث عمران بن الحصين، رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ قال: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**».

فهم خير القرون أبداً، ومن طعن فيهم فهو علامة البدعة والرجس والخبث والهوى، وهو علامة الجهل بأمر الله سبحانه وتعالى.

وثبت من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ قال: «**لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه**».

وفي الحديث: «**الله الله في أصحابي، لا تتخذوا أعراضهم غرضاً، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم**».

ولذلك عقد البخاري في الصحيح (باب): آية الإيمان حب الأنصار.. وآية النفاق بغض الأنصار.

فمن خاض في أعراض الصحابة أو تعرّض لهم، فواجب تأديبه، والأخذ على يديه، وهو سفيه، لأن الله تعالى مدحهم وأثنى عليهم وزكاهم.

وثبت في «**صحيح مسلم**» عن عروة قال: قالت لي عائشة: يا ابن أختي، أُمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبوهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ

لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال ابن تيمية: لا يجوز أن يُدفع الفيء إلى الرافضة؛ لأنهم لم يقولوا ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

وقال ﷺ، وهو يرفع طرفه إلى السماء: «**النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة أصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**».

فالرسول ﷺ أمنة لأصحابه من الفتن. ولذلك لم تظهر البدع إلا بعد موته ﷺ، والصحابة أمنة للأمة لما حملوه من الآثار، وما صدقوا فيه من الأخبار، ولما قدموا فيه الانتصارات الباهرة.

وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: من كان مُستناً فليستنّ بالميت، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

قال بعض الشعراء يمدح أصحاب الرسول ﷺ:

وقاتلتْ معنا الأملاك في أُحدٍ ... تحت العجاجة ما حادوا وما انكشفوا
سعد وسلمان والقعقاع قد عبروا ... إياك نعبد من سلسالها رشفوا
أملاك ربي بماء المزن قد غسلوا ... جثمان حنظلة والروح تختطف
وكلّم الله من أوسٍ شهيدهم ... من غير ترجمة زيحت له السجف

٢ ـ **من الخصائص**: أنهم يهتمون بأعمال القلوب أكثر من اهتمامهم بأعمال الجوارح، لا لأنهم مقصرون في أعمال الجوارح، لكنْ ليسوا كتقصير الأجيال الحالية يوم اهتمت بأعمال

الجوارح وتركت أعمال القلوب، إلا من رحم الله، فتجد في المتأخرين من يهتم بأمر السنة في الظاهر فيطلق لحيته، وهذا لا بد منه، ويقصّر ثوبه، وهذا لا بد منه، وتجده يتفنن في إيراد السنة على مظهره، ولكن قلبه محشو من الكبر والعُجب والرياء والحسد.

فأما الصحابة فقد صفى الله قلوبهم من هذه الأمراض فلا تجد منهم حسداً ولا كبراً ولا رياء؛ لأن الله اصطفاهم مخلصين، وصفاهم سبحانه وتعالى بالمحن والزلازل والفتن إلى درجة أن جعلهم عباداً له خلصاً، رضوان الله عليهم.

عن قتادة قال: سئل ابن عمر هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون؟

قال: نعم، والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال.

كانوا يضحكون كما يضحك الناس، وكانوا يتمازحون، ولحياتهم بساطة ويسر وسهولة.

لكن إذا وصلت التضحية قدموا رؤوسهم على أياديهم، وسلّوا سيوفهم في سبيل الله.

وهذا أمر يفوت الكثيرين، حتى تجد الناس يتكلمون في الأمور الظاهرية، بينما يتركون الأمور الباطنية التي هي من أعمال القلوب. فإنك الآن لو سمعت بشارب خمر لقامت الدنيا وقعدت، ولم تسكن، بينما يوجد في الناس من يحسد، ومن يتكبر على عباد الله، لا يفعل الكبائر الظاهرة، فيبدو عند الناس من أهل الصلاح.

فالصحابة كانوا مجردين لله في بواطنهم، قد أخلصوها للواحد الأحد.

قيل لابن عمر، رضي الله عنهما، وهو محرم: ألم تسمع ما يقول هذا الشاعر ـ شاعر يتغنى وهو محرم؟

قال: ماذا يقول الشاعر؟

قالوا: يقول:

قف بالطواف ترى الغزال المحرما حج الحجيج وعاد يقصد زمزما
لو أن بيت الله كلّم عاشقاً من قبل هذا كاد أن يتكلما

فهذا حاج محرم، رأى هذه الجميلة فضيّع الأركان والطواف والسعي، وأخذ يتغزل!

قال ابن عمر: سبحان الله! والله الذي لا إله إلاّ هو، ما دخلت الحرم إلا ونسيت الدنيا.

٣ ـ **من الخصائص**: سلامتهم من النفاق العملي والاعتقادي، فلا تجد صفات المنافقين فيهم؛ مثل: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر.

بينما تجد من يقوم الليل في المتأخرين، أو من يصوم الاثنين والخميس، أو من يقرأ القرآن ويختمه كل أسبوع، أو من يكثر من التسبيح، توجد فيه بعض هذه المسائل، فالصحابة خصهم الله بأن برأهم من النفاق الاعتقادي والعملي.

قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ،

كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحدٌ يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل.

فخوف الصحابة من النفاق جعلهم مبرئين منه.

أما المتأخرون فتجدهم يُبرئون أنفسهم بأنفسهم، حتى تجد الواحد منا إذا قلت: بأنك منافق غضب وأرعد، وقد يكون منافقاً حقيقياً لكن مع ذلك لا يرضى بهذا، ويغضب عليك، حتى يقول الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق.

والمعنى: ما خاف النفاق إلا مؤمن، فإذا رأيت الرجل يخاف من الرياء، ويخاف النفاق، ويخاف أن يكون مشركاً، فاعلم أنه قريب من الله، أما من يأمن من مكر الله فهو مخذول لا محالة.

وفي الحديث أن عمر، رضي الله عنه وأرضاه، قال لحذيفة بن اليمان: يا حذيفة، أسألك بالله، أسَمّاني رسول الله ﷺ من المنافقين؟

قال: لا، ولا أزكي أحداً بعدك.

٤ ـ **ومن الخصائص:** جهدهم المنقطع النظير في الدنيا، قد يأتي أفراد في الدنيا يكونون في الزهد على درجة عالية، لكن الزهد الجماعي الذي عاشه الصحابة، والتخلي عن ملذات الدنيا، وطلب رضوان الله عزَّ وجلَّ، وطلب ما عند الله عزَّ وجلَّ أمر عظيم، وفي حديث أبي هريرة المشهور، قال: صليت المغرب مع رسول الله ﷺ فلما انصرف الناس تعرضت لعمر بن الخطاب ما بي إلا الجوع، الجوع الشديد الذي كان يصيب أبا هريرة،

حتى يقول: والذي نفسي بيده لقد كنت أُصرع بين المنبر وبين بيت الرسول ﷺ من شدة الجوع، فيظن الناس أن بي مساً من الجنون!

قال: فتصديت لعمر فسألته عن الآيات من أواخر سورة آل عمران فتلاها.

قال: فتصديت لأبي بكر وسألته عن الآيات.

قال: أعرفها، فتلاها عليّ.

فخرج ﷺ فتصدّى له أبو هريرة، فسأله عن الآيات من آخر سورة آل عمران، فضحك ﷺ، ثم أخذه بيده ودخل على إحدى زوجاته.

فقال: أعندكم طعام.

قالت: لا، إلا شيء من لبن أرسله لنا بنو فلان من الأنصار.

قال: يا أبا هريرة، انطلق إلى أهل الصفة فتعالَ بهم.

قال أبو هريرة لنفسه: ماذا يصنع هذا اللبن مع أهل الصفة؟ وهم فقراء بالعشرات في المسجد، وماذا يبقى لي، قال: فأخذوا أماكنهم.

قال ﷺ: **«يا أبا هريرة، خذ الكوب وناول الناس»**، فيأخذ الإناء يملؤه ويعطيهم واحداً واحداً، حتى رووا من اللبن.

قال: **«يا أبا هريرة، بقيتُ أنا وأنت»**.

قال: صدقت، يا رسول الله.

قال: «**اشرب**».

والرسول ﷺ يبتسم.

فشرب، قال: «**زد**»، فشرب، قال: «**زد**»، فشرب قال: «**زد**».

قال: والذي نفسي بيده، يا رسول الله، لا أجد له مسلكاً.

رأى ابن عمر رفقة من أهل اليمن، رحالهم الجلود الممزقة القديمة، فقال: من أحب أن ينظر إلى شبه أصحاب الرسول ﷺ فلينظر إلى هؤلاء.

وعن عائشة قالت: مات أبو بكر فما ترك ديناراً ولا درهماً، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه في بيت المال.

وفي سيرة أبي بكر، رضي الله عنه: أنه ترك بغلة وثوبين، فدفعها إلى عمر، وكتب له سطرين، قال: يا عمر، قد وليتك أمر أمة محمد، فاتق الله، لا يصرعنّك الله مصرعاً كمصرعي.

فلما وصلت عمر جلس يبكي، ويقول: أتعبت الخلفاء بعدك، يا أبا بكر.

وفي «كتب السير»: أن سعد بن أبي وقاص لما فتح المدائن وجد المائدة الكبرى؛ مائدة أنوشروان، مائدة مرصعة بالذهب والزمرد واللؤلؤ والدر.

فحملوها على الرؤوس، ووضعوها على جمل، وأرسلوها لعمر.

فلما رآها عمر بكى، وقال: والذي نفسي بيده، إن رجالاً بلّغوها إياي لأمناء.

فهذا زهدهم، رضي الله عنهم، الذي ميّزهم عن غيرهم.

٥ ـ **من الخصائص**: علم اليقين، فهم أرفع من كل الطبقات والقرون بعلم اليقين أي: أنهم يعبدون الله بعلم اليقين، فالواحد منهم في الصباح يذهب إلى المعركة، ويقول لأهله: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

قالوا: تعود إلينا؟

قال: والله، لا أعود، أريد جنة عرضها السماوات والأرض.

ابن رواحة يقول له الصحابة: يا ابن رواحة عُد لنا بالسلامة.

قال: لا، لا أريد أن أعود.

قالوا: لماذا؟

قال:

لكنني أسأل الرحمٰن مغفرة — وطعنة ذات فرغ تقذف الزبدا
حتى يقال إذا مرّوا على جدثي — يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

ذكر عن علي، رضي الله عنه وأرضاه، أنه قال: والذي نفسي بيده لو كشف الله لي الغطاء ما زدت على ما عندي من إيمان حبة خردل.

ونحن عندنا الظن، يعني: نصدق بأنّ هناك جنة، لكن أعمالنا وتطبيقنا وصلاحنا لا يدل على هذا.

ومن الناس من وصل إلى حال مناقض لحال الصحابة، فلم يعد يبصر إلا المادة.

يقول أحدهم وهو المتنبي:

خذ ما رأيت ودع شيئاً سمعت به   في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

أي: تعجّل شهواتك، ويقول آخر:

لبست ثوب العمر لم أستشر   وتُهت فيه بين شتّى الصور
فما أطال النوم عمراً ولا   قصّر في الأعمار طول السهر

يقول: اشرب، وكُل، واعص الله، فإنك لا تدري ما النتيجة تخرج، أو لا تخرج من هذه الدنيا!!

فالصحابة كانوا يعبدون الله على علم اليقين.

٦ ـ **من الخصائص**: اهتمامهم باجتماع الكلمة، ونبذ الفرقة فإن الله سبحانه وتعالى ذمّ الخلاف، ونهى عن التفرق، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾، فالصحابة كانوا يحرصون على اجتماع الكلمة، وكانوا نصحة.

فعن سليم بن قيس العامري، قال: سأل ابن الكوّا ـ أحد الخوارج ـ عليًا عن السنة والبدعة، وعن الجماعة والفرقة.

فقال: يا ابن الكوّا، حفظتُ المسألة، فافهم الجواب: السنة، والله، سنة محمد ﷺ، والبدعة ما فارقها، والجماعة، والله، ما اجتمع عليه أهل الحق، وإن قلّوا، والفرقة ما فارق ذلك، واجتمع عليه أهل الباطل.

وجاء رجل إلى علي، رضي الله عنه، فقال: يا ابن أبي طالب، أتدري أن أولئك على باطل وأنت على حق؟

قال: ويلك، اعرف الحق تعرف أهله، ولا تعرف الحق بالرجال.

فكانوا يحرصون على اجتماع الكلمة.

ومن ذلك: ما جاء عن قتادة قال: لما بلغ ابن مسعود أن عثمان صلّى بمنى أربعاً استرجع، ثم قام فصلى أربعاً.

فقيل له: استرجعت ثم صليت أربعاً.

قال: الخلاف شر، الخلاف شر.

فكانوا، رضي الله عنهم، أحرص الناس على الائتلاف ونبذ الفرقة.

٧ ـ **من الخصائص:** أنهم أهل التضحيات الكبرى، فبالله لا تذكر للناس سجلي، ولا سجلك فيما قدمنا للإسلام، فليس عندنا شيء.

لا تعرضن بذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

فليس لنا سجلات من العمل الإسلامي، كالصحابة رضوان الله عليهم، لكن الصحابة يكفيك أن تنظر لترجمة الواحد منهم لترى التضحيات.

قالوا: حضر إحدى وعشرين غزوة، وقالوا عن الثاني: وقطعت يده في اليمامة.. وقالوا عن الثالث: قتل أبناؤه الأربعة في القادسية، فكل منهم كما قال النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

٨ ـ **من الخصائص**: أنهم كانوا لا يتكلفون في كل أمورهم، فلا كلفة في الملبس، ولا كلفة في الأكل والشرب والمعيشة، ويأتي على رأس ذلك ترك التكلف في مسائل العلم.

فلم يكونوا يتعنتون في البحث، والتنقير عن كل مسألة، إلا ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

أما غيرهم فقد انشغل بالقول وترك العمل، انشغل بالتنقيب عن قضايا تُضحك أصحاب العقول. قديماً وحديثاً.

فقديماً، بحثوا عن لون كلب أهل الكهف! وبحثوا عن ألوان الطيور التي ذبحها إبراهيم عليه السلام!

هذه بعض خصائص الصحابة، رضوان الله عليهم، ولهم أمور معطرة أخرى ذكرها الله في كتابه، وذكرها الرسول ﷺ وأهل العلم، لكنْ معي ومعك شيء واحد أذكّرك به.

يقول ﷺ: «**المرء يحشر مع من أحب**»[1].. وإنّا نحب الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر، ولم نعمل بعملهم، اللهم فاشهد أنا نعلم أننا لم نعمل كأعمال أصحاب رسولك ﷺ، ولم نبذل كبذلهم، ولم نصدق كصدقهم، ولم نضحِ كتضحيتهم، لكن يا رب نحبهم.. يا رب نحبهم.. يا رب نحبهم.

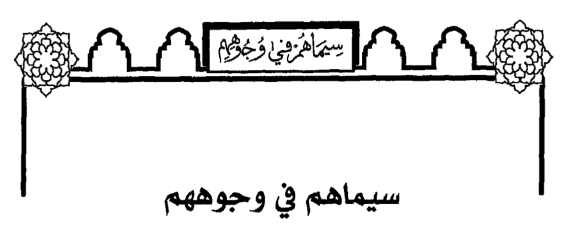
---

(١) رواه البخاري (٦١٦٧)، ومسلم (٢٦٣٩) عن أنس بن مالك، رضي الله عنه.

أسألك أن تنفعنا يوم العرض الأكبر بهذا الحب، وأن تحشرنا معهم بهذا الحب، وأن تجمعنا بهم في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر بهذا الحب، فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعضٍ عدو إلا المتقين.

د.عائض بن عبدالله القرني

الرياض



سيماهم في وجوههم

وهؤلاء ثمانية نماذج من أصحاب محمد ﷺ؛ الذين أعلنوا إسلامهم، وهداهم الله من الضلالة وبصّرهم من العمى، وأخرجهم من الظلمات إلى النور: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

هؤلاء الثمانية الأبطال: أناس عاشوا الشرك والكفر والوثنية، ثم هداهم الله، فأسلموا وآمنوا:

١ ـ عمير بن وهب المفاجأة الكبرى.

٢ ـ الطفيل بن عمرو الدوسي الداعية العملاق.

٣ ـ عمرو بن العاص مكسب للإسلام.

٤ ـ ثمامة بن أثال بطل المغامرة.

٥ ـ ضمام بن ثعلبة صاحب المسائل العقدية.

٦ ـ عبدالله بن سلام شاهد من بني إسرائيل.

٧ ـ ابن سعنة اليهودي تاجر ناجح.

٨ ـ عكرمة بن أبي جهل الراكب المهاجر.





عمير بن وهب

أما عمير بن وهب، فقد كان وثنياً مشركاً، لا يعرف الله، بل كفر بلا إلـه إلاّ الله محمد رسول الله.

أسلم كثير من كفار قريش، أما هو فأبى أن يسلم.

قُتل أقاربه في بدر، فاجتمع هو وصفوان بن أمية عند البيت العتيق، والرسول ﷺ في المدينة لا يعلم عنهما شيئاً، لكن الله تعالى يعلم.

اجتمعوا تحت الميزاب، وتشاوروا في مناجاة؛ لا يسمعهم ثـالـث إلا الله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾.

قال عمير لصفوان: وددت أن أحداً يكفل أهلي ومالي، وأذهب إلى محمد في المدينة فأقتله.

فقال صفوان: أنا أكفل أهلك، وأقوم بأطفالك: الدم دمي والهدم هدمي.

قال: فاكتم هذا الأمر.

قال: أكتمه.

قال: فإني ذاهب إلى محمد، وأقول للناس: إني أريد الأسارى، يعني: أسارى أهل بدر، وكانوا سبعين أسيراً في المدينة، ولا تخبر أحداً.

لكن علاّم الغيوب الذي لا يخفى عليه خافية علم.

ذهب عمير بن وهب، فأخذ سيفه فسمه بالسم الأزرق، حتى أصبح السيف أزرق من السم.

وخرج يمضي في الليل، ووصل إلى المدينة قبل الغروب، فرآه عمر بن الخطاب، وعمر قد أوتي فراسة الإيمان، يلتقط بعينيه الشياطين من رؤوس الملاحدة.

فقال للصحابة: إني أرى الشيطان متقمصاً هذا الرجل، يعني: عمير بن وهب، فأقبل عمر منه، وقال: إلى أين يا عمير؟

قال عمير: أتيت لأفادي الأسارى من محمد.

فمسكه بقميصه، وثيابه، وأخذ يقتاده إلى محمد ﷺ رهينة.

السيف مع ذاك، لكن الله مع عمر، والموت مع ذاك، ولكن الحق مع عمر.

فأخذه إلى الرسول ﷺ، والرسول ﷺ لم يكن عنده سلاح، وعمير معه سيف مسموم، ولكن:

عناية الله أغنت عن مضاعفة   من الدروع وعن عالٍ من الأطم

قال ﷺ: **«يا عمير، ماذا جاء بك»؟**

قال: أتيت من أجل قرابة لي أسرتَهُمْ يوم بدر أفاديهم.

فقال ﷺ: **«لا، والذي نفسي بيده، إنك جلست أنت وصفوان بن أمية ليلة كذا في يوم كذا تحت ميزاب الكعبة فقلت لصفوان: وددت أني أقتل محمداً لكن أهلي وأطفالي، فقال لك صفوان: اذهب وأنا أكفيك الأطفال، فسممت سيفك شهراً، ثم أتيت لتقتلني، وما كان الله ليسلطك على ذلك»**.

فقام عمير وقال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنك رسول الله[1] ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥﴾؟.

أكهانة هذه، أم هو الحق الصراح؛ الذي أتى به الوحي مع جبريل عليه السلام ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾.

وفي قصة عمير دروس:

أولها: فضل عمر وفراسته التي آتاه الله.

وقال ابن عمر: كنا نتحدث أن السكينة تنزل على لسان عمر.

الثاني: علم الله وسعته ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾.

---

(١) انظر: القصة في «الإصابة» (٦٠٥٣).

الثالث: معجزة له ﷺ، وقد علَّمه الله.

الرابع: أن من ادّعى علم الغيب، فقد كذب إلا الأنبياء والرسل ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

الخامس: فضيلة لعمير؛ لأنه عندما علم الحق أذعن له وأسلم، ولم يكابر، فأصبح بطلاً من أبطال الإسلام.





الطفيل بن عمرو

أما العلم والبطل الثاني فهو الطفيل بن عمرو الدوسي: وهو من دوس زهران، من السراة سمع بالرسول ﷺ في مكة، فركب جمله، وأخذ متاعه، ولبس ثيابه.

وكان الطفيل شاعراً مجيداً، وخطيباً فصيحاً، يعرف جزل الكلام من ضعيفه.

وصل إلى مكة، ولكن الدعايات المغرضة ضد الرسول ﷺ تتحرك من المشركين لتشويه سمعة المصطفى ﷺ بالقول المريض، والتعليقات المرة.

دخل مكة، فلقيه كفار قريش.

فقالوا: إلى أين يا طفيل؟

قال: أريد هذا الذي يزعم أنه نبي.

قالوا: ماذا تريد؟

قال: أريد أن أسمع كلامه، إن كان حقاً اتّبعته، وإن كان باطلاً تركته.

قالوا: إياك وإياه، إنه ساحر، إنه شاعر، إنه كاهن، إنه مجنون، احذر لا تسمع كلامه.

قال الطفيل: فوالله، ما زالوا بي يخوفونني حتى أخذت القطن فوضعته في أذنيّ.

لكن الحق أقوى من القطن، والقرآن ينفذ من خلال القطن إلى القلب.

قال: ودخلت الحرم يوماً، والقطن في أذني لا أسمع شيئاً.

لكن أراد الله عزَّ وجلَّ أن يفتح أذنيه؛ لأن بعض الناس له أذنان وعينان وقلب، لكن كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

أتى فرأى وجه الرسول ﷺ، فقال: فلما رأيت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب.

لو لم تكن فيه آيات مبينة   لكن منظره ينبئك بالخبر

وجه الكذاب تعرفه، ووجه الخمّار تعرفه، ووجه تارك الصلاة تعرفه، وهكذا وجه المصلي والصادق تعرفه، وأصدق الصادقين وخير الناس أجمعين: محمد ﷺ.

قال الطفيل: فسمعته ﷺ يقرأ، لكن لا أسمع؛ لأن في أذني القطن، فقلت لنفسي: عجباً لي، أنا رجل شاعر فصيح، أعرف حسن الكلام من قبيحه، لماذا لا أضع القطن، فإن سمعت الكلام طيباً وإلا تركته؟!

فوضع القطن، وهذه هي الخطوة الأولى.

وبدأ ﷺ يقرأ آيات القرآن.

فلما سمع الكلام وقع في قلبه.

هل يستطيع ملحد، إن كان عنده عقل أن يسمع ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ ولا يؤمن؟

من يستطع أن يسمع ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ ولا يسلم؟

قال: فلما سمعت الكلام، تقدمت، وقلت: عم صباحاً، يا أخا العرب.

هذه تحية جاهلية، وهي ملغاة عند محمد ﷺ، فلا تُقبل.

وقد كانت تقال في الجاهلية: عم صباحاً، ولذلك يقول امرؤ القيس:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي   وهل يعمن من كان في الأعصر الخالي

فقال ﷺ: «**أبدلني الله بتحية خير من تحيتك**».

قال: وما هي؟

قال: «**السلام عليكم ورحمة الله**».

ما أحسن الكلام!

فقال: السلام عليكم.

فرد عليه.

قال: من أنت؟

قال: **«أنا رسول الله»**.

قال: من أرسلك؟

قال: **«الله»**.

فقال الطفيل: إلى ماذا تدعو؟

فأخبره وقرأ عليه شيئاً من القرآن.

قال: أشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وأشهد أنك رسول الله[1].

ثم قال: يا رسول الله، أنا من دوس (هو سيد قبيلة دوس).

فأمره ﷺ أن يعود داعية إليهم.

فعاد داعية إلى دوس؛ فلما وصل إليهم قال: هدمي من هدمكم حرام، ودمي من دمكم حرام، حتى تؤمنوا بالله، فكفروا، وأعرضوا، وغلبهم الزنا.

فأتى مرة ثانية إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله، غلب على دوس الزنا، وكفروا بالله، فادعُ الله عليهم، يا رسول الله. أي: أن يسحقهم ويحطمهم، ويجعلهم شذر مذر.

لكن محمداً ﷺ كان كما قال الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ

(١) انظر: القصة في «سيرة ابن هشام» (١/٣٨٢).

عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

فرفع يديه ﷺ، يريد أن يدعو لهم، فظن الطفيل أنه يدعو عليهم.

فقال الطفيل: هلكت دوس.

فقال ﷺ: **«اللهم اهدِ دوساً وائت بهم، اللهم اهدِ دوساً وائت بهم، اللهم اهدِ دوساً وائت بهم»**[1].

ثم قال: يا طفيل، اذهب إلى دوس، فادعهم إلى الإسلام، ومن أسلم معك، فقاتل به من كفر، فذهب، وطلب من الرسول ﷺ أن يجعل له آية.

فسأل له فوقع نور في جبهته يضيء له في الليل.

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم   من الليل حتى نَظَّم الجذع ثاقبه

قال: يا رسول الله، أخشى أن يقولوا: فيّ مُثْلة (أي: مرض) فادعُ الله أن يحول عني هذا النور، فحوله إلى العصا، فكان إذا رفع العصا أضاءت له جبال زهران.

فلما وصلهم، كانوا قد تهيؤوا بدعاء الرسول ﷺ، فقال: **«أدعوكم إلى لا إلـه إلاّ الله محمد رسول الله»**، ثم أراهم الآية.

فأسلموا جميعاً ودخلوا في دين الله أفواجاً، فسبحان من يهدي.

---

(١) متفق عليه.

وأتى بهم، رضي الله عنه وأرضاه، في موكب عظيم، ودخل بهم بعد الهجرة إلى المدينة في جيش عرمرم، حتى ثار الغبار من رؤوسهم، وكلهم في ميزان الطفيل.

وكان من حسناته: أبو هريرة، صاحب الحديث، وأستاذ المحدثين في الإسلام، وأكبر حافظ في الأمة المحمدية، والراوية العملاق، رضي الله عنه وأرضاه.

واستمر الطفيل يدعو، ويجاهد، وكان قد باع نفسه من الله، حتى قُتل في اليمامة شهيداً ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾.

وفي قصة إسلام الطفيل دروس:

أولها: أن تحية أهل الإسلام: «السلام عليكم» ولا تُستبدل بغيرها.

الثاني: أن على الداعية أن يعرض القرآن، ولا يستبدل به في دعوته كلاماً آخر.

الثالث: أن على الداعية ألاّ يستعجل، وأن يكون حليماً صبوراً، واسع الصدر، لعلّ الله أن يهدي به.

الرابع: أن الله أيّد رسوله ﷺ بمعجزات.

الخامس: إثبات أهل السنة للكرامات التي للأولياء، فإن من كرامات الأولياء: ما وقع للطفيل.

السادس: أن من دعا إلى خير، وإلى هدى، كان له من

الأجر مثل أجور من تبعه، وبالعكس: من دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه إلى يوم القيامة.

السابع: أن الله تعالى يكرم عباده بالشهادة، وقد أكرم الطفيل بذلك.





عمرو بن العاص

أما الرجل الثالث، فهو عمرو بن العاص داهية العرب: الذي كان إذا رآه عمر بن الخطاب، قال: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب.

كان عمرو بن العاص دقيقاً قصيراً، لكن كله عقل وذكاء يتوقد.

وجاء عن عمر أنه كان إذا رآه يقول: ليس لأبي عبدالله أن يمشي إلا أميراً.

روي عنه ﷺ أنه قال: «**بنو العاص مؤمنان عمرو وهشام**» والحديث هذا صحيح[1].

تأخر في الإسلام، رضي الله عنه وأرضاه، فرافقه إلى

---

(١) صحيح، رواه أحمد (٣٠٤/٢، ٣٢٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣٠٣/٦)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٩٥)، والحاكم (٢٦٨/٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٨/٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٩٩/٢)، جميعاً من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به. وصححه الحاكم على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وانظر «مجمع الزوائد» (٣٥٢/٩).

المدينة عثمان بن أبي شيبة؛ من بني عبدالدار وخالد بن الوليد، فلما اقتربوا من المدينة، قال عمرو لهم: دعوني حتى أقدم على الرسول ﷺ، فإن لي ذنوباً أعتذر منها.

فتركوه.

فأقبل عمرو، فلما رآه ﷺ هش وبش في وجهه، وقام له فأجلسه بجانبه.

قال: يا رسول الله، أريد أن أسلم أبسط يدك لأبايعك.

فبسط يده ﷺ، فقبض عمرو يده.

قال ﷺ: **«ما لك يا عمرو»؟**

قال: أشترط.

قال: **«ماذا تشترط»؟**

قال: أشترط أن يغفر الله لي ذنبي.

قال: **«أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما قبله وأن التوبة تجب ما قبلها»؟**

قال عمرو: فأسلمت، فوالله الذي لا إلٰه إلاّ هو، ما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ، والله ما ملأت عيني بعد الإسلام منه إجلالاً له، والله لو سألتموني الآن أن أصفه ما استطعت أن أصفه.

فأسلم، وأصبح من دهاة الناس، عظيماً من العظماء، ينفع الله به هذا الدين، ويقود كتائب المسلمين.

وله مواقف مع الرسول ﷺ.

في ترجمته أن الرسول ﷺ أراد أن يتألّفه في أول أيام الإسلام، فخطب ﷺ فكان ينظر إلى عمرو، ولا ينظر إلى الناس يتألفه بالنظر.

قال عمرو: فتوهمت أني أفضل الناس.

فلما انتهت الخطبة قلت: يا رسول الله من أفضل الناس؟ ـ ظن أن الرسول ﷺ سيقول: عمرو بن العاص! ـ.

قال: «**أبو بكر**».

قال: ثم من؟

قال: «**عمر**».

قال: ثم عدّد رجالاً، فوددت أن الأرض خسفت بي[1].

قال عمرو: أرسلني ﷺ في غزوة فأتيت لأتهيأ، وهو يتوضأ ﷺ فقلت: يا رسول الله، أنا لا أريد المال أريد الجهاد في سبيل الله، فتبسم ﷺ وقال: «**يا عمرو نِعْم المال الصالح في يد الرجل الصالح**»[2].

وصح أنه خرج في غزوة، وكان قائداً على أبي بكر

---

(١) متفق عليه.

(٢) **صحيح**، أخرجه الطيالسي (١٠٦١)، وابن أبي شيبة (٢٢١٨٢)، وأحمد (٢٠٢/٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩)، وأبو يعلى (٧٣٣٦)، وابن حبان (٣٢١١ ـ إحسان)، والحاكم (٢/٢)، جميعاً من حديث موسى بن علي، عن أبيه، عن عمرو بن العاص به. وصححه الحاكم على شرط مسلم وأقره الذهبي، وهو كما قالا، فرجاله كلهم ثقات على رسم مسلم في «صحيحه».

وعمر، وعلى أمثالهما من الصحابة، فأصابته جنابة في ليلة شاتية.

فترك الماء؛ لأنه ما استطاع أن يغتسل به فتيمم وصلى بهم.

فشكوه إلى الرسول ﷺ.

فقال ﷺ: **«يا عمرو أصليت بأصحابك جنباً»؟**

قال: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ يفتي بين يدي الرسول ﷺ!.

فتبسم ﷺ وسكت[1].

والتبسم عند أهل الحديث: إقرار، فإذا تبسم ﷺ، وسكت فسكوته: إقرار، يعني: أقره على ما فعل، رضي الله عنه وأرضاه.

وفي إسلامه دروس:

أولا: أن التوبة تهدم ما قبلها من الذنوب والخطايا، ولو كانت كالجبال إذا كانت صادقة نصوحاً، وأن الإسلام يهدم ما قبله من الخطايا فلا يعاتب العبد إذا أحسن على ما فعل في الجاهلية.

الثاني: أن على الداعية أن يتألف القلوب بنظرة أو كلمة حانية.

---

(١) صحيح، رواه أحمد (٤/٢٠٣)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٥٤).

الثالث: المبايعة بالأيدي، وأنها سنة من سنن الرسول ﷺ.

الرابع: حبه ﷺ وما كان له من منزلة في قلوب الصحابة.

الخامس: أن الناس يوزنون بميزان قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾.

السادس: أن الإنسان يُقدر ببلائه في الإسلام.

السابع: أن الدهاء يستخدم لإعلاء كلمة الله، ولا بأس به، وإذا استخدم لإضرار المسلمين فهو خبث ونكاية ونفاق، والعياذ بالله.





ثمامة بن أثال

أما الرجل الرابع، فهو: ثمامة بن أثال؛ سيد بني حنيفة، وبنو حنيفة منهم: مسيلمة الكذاب، ومنهم: ثمامة بن أثال.

ثمامة بن أثال كان يسكن في حصن له في أرض بني حنيفة في نجد، وفي ليلة من الليالي سمع الرسول ﷺ أن ثمامة هذا يريد أن يغزو المدينة.

فقال ﷺ، فيما يُروى عنه: «**بل أنا أغزوه إن شاء الله**».

أي: قبل أن يتحرك من هناك نرسل له من يغزوه.

فأرسل له ﷺ خالد بن الوليد في كوكبه وفي سرية.

فأخذ خالد سيفه وخيله، ومشى بالأبطال إلى وادي بني حنيفة في نجد.

وفي إحدى الليالي قال ثمامة لزوجته: أنا لا أخرج هذه الليلة للصيد أبداً؛ لأنه شعر بشيء.

لكن الله إذا أراد شيئاً أتمه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

قال زوجته: لِمَ؟

قال: أتوجس، أي: أتاني خوف لا أدري ما سببه.

فمكث في حصنه وقصره، والأبواب مغلقة عليه، لكن أراد الله أن يخرجه لخالد ليأسره ويذهب به إلى المدينة، فأرسل الله له الغزلان والظباء تلك الليلة حتى كانت تنطح باب الحصن.

فقالت زوجته وهو في ضوء القمر: عجيب أمرك كل ليلة تطارد الغزلان، ولا تجدها، واليوم أتت تناطح أبوابنا، إنه لمن العجز أن تتركها.

فأخذ القوس والأسهم، وأتى وراء الغزلان، ففتح الباب ففرت الغزلان قليلاً، ففر وراءها، فدخلت حديقة، فدخل وراءها، فخرجت، فخرج من الحديقة.

فلما أصبح في الصحراء، وإذا بخالد يطوقه.

قال: من أنت؟

قال: خالد بن الوليد، إن كنت لا تعرفني تعرفني الليلة.

قال: ماذا جاء بك؟

قال: سمعنا أنك تريد أن تغزو يثرب، وقد أرسلني ﷺ إليك.

قال: من أكلم؟

قال: كلّم رسول الله في المدينة، فركب معه وأتى به أسيراً

مشدوداً. والحديث في «الصحيحين»، وقال البخاري (باب) ربط الأسير في المسجد من حديث أبي هريرة.

فدخل خالد بهذا الأسير وربطه في سارية المسجد لثلاث مسائل:

أولها: أن هذا إهانة للأسير المشرك.

الثاني: لعله أن يرى صولة الصحابة وجولتهم، فيراهم وقد تجمعوا في المسجد، وقد اهتدوا فيهتدي.

الثالث: لعله أن يسمع الوحي والقرآن والصلاة إذا صلى ﷺ فيتأثر.

فربطه في سارية المسجد.

فأتى ﷺ للصلاة، فقال: «**أسلم يا ثمامة**».

قال ثمامة: يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر.

يقول: إن قتلتني فإن دمي لا يضيع فأنا سيد قبيلة، فورائي أبطال يأخذون بدمي، وإن عفوت عني وأطلقتني فسوف تجد الجميل عندي محفوظاً.

فتركه ﷺ.

فكان ﷺ خلال ثلاثة أيام كلما أتى إلى الصلاة قال: «**يا ثمامة أسلم**».

فيعيد قوله.

فقال ﷺ: «**أطلقوه**».

فأطلقوه، فذهب إلى نخلة من نخل المدينة، فأخذ ماءً فاغتسل ثم دخل المسجد، وقال: أشهد أن لا إلـه إلاَّ الله وأنك رسول الله.

فقال له ﷺ: «**ولماذا لم تُسلم وأنت في القيد**»؟

قال: أخشى أن تتحدث العرب أني أسلمت ذلاً؛ لأنه سيد من السادات.

قال: يا رسول الله، إن شئت أن أمنع حنطة اليمامة عن قريش فعلت.

قال: امنعها عنهم.

فذهب يعتمر، فقال له كفار قريش: هيه، يا ثمامة صبأت مع محمد.

قال: والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة.

فقيدوه، فخرج من القيد، وفر إلى اليمامة، فضرب حظراً اقتصادياً عليهم فما وصلتهم حبة[1].

وفي قصته دروس:

أولاً: جواز إدخال الكافر المسجد للحاجة.

الثاني: التمهل بالكافر ثلاثة أيام لعله أن يهتدي.

---

(١) انظر: القصة في «الإصابة» (٩٥٧) وأصلها في «الصحيح» بنحوها.

الثالث: التضييق على الكافر لعله أن يهتدي أو يخاف.

الرابع: استخدام أهل الوجاهات وإنزالهم منازلهم.

الخامس: الغسل للكافر.





ضمام بن ثعلبة

وأما الرجل الخامس، فهو: ضمام بن ثعلبة: وحديثه في «الصحيحين».

سمع بداعٍ للرسول ﷺ يعرض الإسلام، فاطمأن قلبه، فأخذ ناقته، وركَبها ووفد إلى الرسول ﷺ.

فأتى، والصحابة مجتمعون في المسجد مع الرسول ﷺ، والرسول ﷺ كان من هديه أن يتكىء أحياناً على الميسرة، وأحياناً على الميمنة، فيأتي الأعرابي والغريب فلا يعرف الرسول ﷺ.

فأتى هذا الرجل، فعقل ناقته في طرف المسجد، وجاء بعصاه يتخطى الصفوف، وقال: أين ابن عبدالمطلب؟ أي: محمد ﷺ!!

وهو ابن عبدالله، لكن كان جده عند العرب أشهر؛ لأنه كان سيداً مطاعاً.

ولذلك كان الرسول ﷺ يقول في حنين:

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبدالمطلب

قال للصحابة: أين ابن عبدالمطلب؟

قال الصحابة: هو ذاك الرجل الأبيض الأمهق المرتفق. (الأمهق: المشوب بحمرة، والمرتفق: أي المتكىء).

فتخطى الصفوف وقال: يا ابن عبدالمطلب.

فقال ﷺ: **«قد أجبتك»**.

قال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة.

يقول بعض العلماء: هذا أقوى، أو أصعب سؤال ورد عن التوحيد في السنة.

قال: **«سل ما بدا لك»**.

قال: من رفع السماء؟

قال: **«الله»**.

قال: من بسط الأرض؟

قال: **«الله»**.

قال: من نصب الجبال؟

قال: **«الله»**.

قال: أسألك بمن رفع السماء، وبسط الأرض، ونصب الجبال، آلله أرسلك إلينا رسولاً؟

فجلس ﷺ من عظم السؤال، وقال: **«اللهم نعم»**.

قال: أسألك بمن رفع السماء، وبسط الأرض، ونصب الجبال، آلله أمرك بأن تأمرنا بخمس صلوات في اليوم والليلة؟

قال: **«اللهم نعم»**.

فسأله عن الصيام، ثم قال: أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنك رسول الله، والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص، أنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر، ثم ولّى.

تعريف موجز، وسؤال موجز، وموقف موجز، فما أسهل الإسلام!

قال ﷺ: **«من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»** وفي لفظ آخر: **«أفلح الرجل ودخل الجنة إن صدق»**.

قال ابن عباس: ما رأينا وافداً أخير لقومه من ضمام بن ثعلبة.

قال أنس: ما رأينا أعقل من ضمام بن ثعلبة.

لأنه اختصر في المسألة، وسأل عن مسائل عظيمة.

وفي إسلامه دروس:

أولها: ألاَّ يؤخذ بجفاء الإنسان حتى يبصر ويعرف بالصواب.

الثاني: أنه لا بأس أن يُنادي الإنسان باسمه أو اسم أبيه؛ لأن بعض الناس قد يغضب عليك إذا لم تقل له: يا شيخ، أو يا صاحب الفضيلة، أو يا صاحب السعادة، أو يا صاحب الفخامة.

الثالث: أما في حقه ﷺ فالواجب أن ينادىٰ باسم الرسالة لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ فينادي بيا رسول الله، أو يا نبي الله.

الرابع: جواز العرض على الشيخ والمعلم كما يفعل أهل الحديث.

الخامس: أن على العالم أن يكون واسع الصدر.



عبدالله بن سلام

وأما الرجل السادس، فهو: عبدالله بن سلام الذي يقول الله فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ كان يهودياً فأسلم، وقصة إسلامه عجيبة.

هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، فاستقبلته القلوب وحيّته الأرواح، وعانقته النفوس.

فنزل في سوق المدينة.

قال ابن سلام: انجفل الناس (أي: هرعوا) إلى الرسول ﷺ فكنت فيمن انجفل فاجتمعت معهم، فلما استبنت وجه الرسول ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب فاقتربت منه فإذا هو يقول: «**يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصِلُوا الأرحام وصَلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**» رواه الترمذي وهو صحيح.

قال: فلما سمعت هذه الكلمات، أتيت إلى الرسول ﷺ فقلت: يا رسول الله، أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وأشهد أنك

رسول الله؛ لأنه كان يقرأ التوراة، ويعرف وصف الرسول ﷺ فيها.

قال: يا رسول الله، أسألك عن ثلاث مسائل لا يعرفها إلا نبي.

قال: «ما هي»؟

قال: ما هو أول طعام أهل الجنة، وكيف يشبه الولد أمه أو أباه، وما هي أول علامات الساعة؟

فقال لابن سلام: **«أما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت»**.

قال: صدقت.

قال: **«وأما لماذا يشبه الولد أباه أو أمه فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه أباه، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه أمه»**.

قال: صدقت.

قال: **«وأما أول علامات الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»**.

قال: صدقت[١].

ثم شهد أن لا إلـه إلاّ الله وأن الرسول رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهت إذا علموا أني أسلمت بهتوني، فأدخلني في هذه المشْرَبة (غرفة)، واسألهم عني.

---

(١) متفق عليه.

فأدخله ﷺ في المشربة وأغلق عليه، واستدعى اليهود، وقال: «**كيف عبدالله بن سلام فيكم**»؟

قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وعالمنا وابن عالمنا، وفقيهنا وابن فقيهنا.

قال ﷺ: «**أرأيتم إن أسلم**»؟

قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فخرج ابن سلام وقال: أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأنك رسول الله.

فقاموا ينفضون ثيابهم، ويتناخرون كالحمير، ويقولون: شرنا وابن شرنا، وسيئنا وابن سيئنا، أو كما قالوا.

فقال الله في ذلك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي قصته دروس:

أولاً: أن وصفه ﷺ كان موجوداً في التوراة، كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

ثانياً: أن من أسلم من اليهود أو النصارى فله أجران؛ أجر إسلامه بكتابه وبنبيه، وإسلامه بنبينا وكتابنا، ونحن نؤمن بجميع الكتب التي أنزلها الله والرسل الذين أرسلهم الله جميعاً.

ثالثاً: أن الشاهد إذا شهد بحق، ثم نقضه في مجلسه، لا يقبل؛ لأنه ما نقضه إلا لأمر.

رابعاً: البلاغة التي أوتيها ﷺ.

خامساً: أن الرسول ﷺ أطلعه الله على كثير من علم الغيب، ومن علامات الساعة، فأخبر الناس فأسلموا بتلك المعجزات.



ابن سعنة

أما الرجل السابع، فهو: ابن سَعْنة يهودي تاجر.

يقول: عرفت أوصاف الرسول ﷺ إلا وصفاً واحداً.

قيل: ما هو؟

قال: وجدت مكتوباً في التوراة أنه إذا أُغْضب يزداد حلماً ﷺ.

هاجر ﷺ إلى المدينة، فرآه ابن سعنة هذا، فرأى أوصافه الموجودة في التوراة كلها إلا صفة واحدة؛ أنك إذا أغضبته يزداد حلماً.

فأتى إلى الرسول ﷺ فقال: يا أبا القاسم.

قال: «**نعم**».

قال: أنا تاجر من تجّار اليهود، وأنت تحتاج مالاً، وأنا غني، فأريد أن أُسْلفك شيئاً من المال حتى يفتح الله عليك.

فاستلف منه ﷺ مالاً، حتى يفتح الله عليه.

وما مرت أيام بعد أن وصل المال إلى الرسول ﷺ، إلا وبهذا التاجر في المسجد قبل صلاة العصر.

فقال: يا محمد، أعطني مالي، إنكم مُطْل يا بني عبدالمطلب!!

يعني: تماطلون الناس.

قال الرسول ﷺ: **«أما أعطيتني المال إلى أجل»**؟

قال: لا، أعطني مالي، إنكم مُطْل يا بني عبدالمطلب.

فنظر إليه عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله، دعني أقطع عنق هذا الكافر.

فقال الرسول ﷺ: **«أحب أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن الاقتضاء»**.

ثم أخذ اليهودي يرفع صوته، فأخذ ﷺ يتبسم، وكلما رفع صوته تبسم.

فأخذه ﷺ من يده، وذهب به إلى بيته، فأعطاه ماله وزاده.

قال: أشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وأنك رسول الله، قرأت أوصافك فرأيتها فيك غير أنك إذا أغضبت ازددت حلماً، وقد رأيته اليوم[1].

قال ﷺ: **«لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود كلهم أو جميعهم»**[2].

---

(١) انظر: قصة إسلامه في «الإصابة» (٢٨٩٧)، وقد صححها الحافظ.

(٢) رواه مسلم.

وفي قصته: أن الرسول ﷺ كان من أحلم الناس ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.



عكرمة بن أبي جهل

أما آخر الأصحاب، فهو: عكرمة بن أبي جهل.

فسبحان الذي يخرج الحي من الميت، والميت من الحي، لقد كان أبوه فرعون هذه الأمة.

تأخر إسلامه حتى يوم الفتح.

كان مشركاً آنذاك، وقاوم مقاومة عنيفة، لكن انهارت مقاومته أمام خالد.

فركب إلى البحر يريد أن يرمي نفسه في البحر، ويخرج إلى إحدى الجزر، أو أن يضيع في العالم؛ لأنه ظن أن الرسول ﷺ سوف يذبحه.

فأتت امرأته إلى الرسول ﷺ، وقالت: زوجي فرّ منك.

قال: **«خذي له الأمان»**.

قيل: أعطاها ﷺ كساءً، وقيل: عمامة، وقيل: أعطاها قلنسوة، فقال: **«خذيها وأخبريه»**.

فأتت وإذا هو يتهيأ على البحر يريد أن يركب سفينة، فأشارت إليه قائلة: الأمان، الأمان.

قال: لا أمان، لا أمان.

قالت: هذه عمامة محمد ﷺ وقلنسوته.

فلما عاد، ورآه ﷺ مقبلاً مع زوجته تبسم ﷺ؛ لأنه ليس من الحكمة أن يقول: أين أنت يا فارّ أو يا كافر.

ولكنه ﷺ قال: «**مرحباً بالراكب المهاجر**»[1]، أنت هاجرت إلى الله ورسوله.

فقال: أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأشهد أنك رسول الله، والله يا رسول الله، لا أترك موقفاً حاربت الإسلام فيه إلا حاربت مع الإسلام فيه، ولا نفقة أنفقتها في حرب الإسلام، إلا أنفقت ضعفها في نصرة الإسلام.

حضر اليرموك، رضي الله عنه وأرضاه، فانهزم المسلمون في أول المعركة.

فلما رأى الهزيمة لبس أكفانه، واغتسل وتطيب، وسل سيفه وكسر غمده على ركبته، وقال: يا مسلمون، من يبايعني على الموت؟ من يشتري الموت اليوم؟

فبايعه أربعمائة مقاتل، فشق بهم صفوف الروم كالسيل، حتى وصل إلى وسط الروم، فقاتل حتى صلاة الظهر، ثم

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٣٦)، والحاكم (٣/٢٤٢) وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: لكنه منقطع، وفي ثبوت الحديث بحث.

تناوشته الرماح والسيوف من كل جانب فوقع صريعاً على الأرض.

فحملوه على الأكتاف حتى وصل إلى القائد خالد بن الوليد.

فرآه خالد فاحتضنه؛ لأنه كان صديقاً له في الجاهلية وقال: ماذا تريد يا عكرمة؟

فأشار بلسانه يريد الماء؛ لأنه لا يستطيع أن يتكلم، فهو في آخر رمق من الحياة.

فأتى خالد بماء بارد من خيمته، فاندفع نحو عكرمة ليسقيه، وما هي إلا لحظات حتى جيء بالحارث بن هشام، عم عكرمة، أخو أبي جهل، وهو في آخر رمق، فوُضِع على رجلي خالد، فأُتي بابن عكرمة، وهو شهيد فوُضع بجانبه وجيء برابع.

فأتى خالد بالماء ليعطي عكرمة فأشار إلى عمه، يقول: اسقه قبلي ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

فأعطى عمه، فرفض أن يشرب قبل ابن عكرمة.

فدفعوا الماء للشاب الصغير، فرفض أن يشرب قبل الرجل الرابع.

فحولوه إلى الرابع، فقال: لا حتى يشرب عكرمة.

فعاد إلى عكرمة، فوجده قد مات.

فدفعه إلى الحارث بن هشام، فوجده قد مات.

فأعاده إلى الثالث، فوجده قد مات.

فأعاده إلى الرابع، فوجده قد مات.

قال أهل العلم: فانتحب خالد من البكاء، وقال: اللهم اسقهم من جنتك زعم فلان (يعني: أحد الكفار) أنا لا نموت إلا حبطاً (يعني: لا نموت إلا على الفرش) لا والله، بل نموت تحت قصف السيوف وضرب الرماح.

هذا عكرمة بن أبي جهل وهو مَثَلٌ للشباب المسلم.

قيل للإمام أحمد: هل يُقَبَّل المصحف؟

قال: كان عكرمة يقرأ القرآن، ويبكي، ويقبّل المصحف، ويقول: كلام ربي، كلام ربي.

هؤلاء هم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم، وأملنا في الله أن يجمعنا بهم في الجنة؛ لنرى فيها: عمير بن وهب، والطفيل بن عمرو، وعمرو بن العاص، وثمامة بن أثال، وضمام بن ثعلبة، وعبدالله بن سلام، وابن سعنة، وعكرمة بن أبي جهل.

ومن أراد أن يجتمع بهم فليفعل كفعلهم.

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون كفعلهم وإن حاولوا في النازلات وأجملوا





أولئك آبائي

إنها أخبار عجيبة وجميلة، يطرب لها القلب، وتتشنّف لها الآذان، وتثلج بها الصدور.

أخبار علمائنا الذين جعلهم الله عزَّ وجلَّ كأنبياء بني إسرائيل، وسوف أقص عليكم قصصاً عجيباً من أخبارهم.

الأول: تحملهم المشاق في طلب العلم.

الثاني: زهدهم في الدنيا وإعراضهم عنها.

الثالث: قولهم كلمة الحق فلا يخافون في الله لومة لائم.

الرابع: بذلهم العلم لطالبيه ونشرهم المعرفة.

الخامس: خشيتهم لله تعالى.

السادس: تواضعهم لربهم تبارك وتعالى.

إن العلم أشرف مطلوب، وهو يوصل صاحبه إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أو يوصله إلى نار تلظى.

فمن الناس من طلب العلم فكان حجة عليه، وخيبة وندامة، فكان كالحمار يحمل أسفاراً، كما قال الله عزَّ وجلَّ في

علماء بني إسرائيل: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ وقال في عالمهم الضال المجرم: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

قال عبدالعزيز الجرجاني، وهو أديب عجيب، وقصيدته من أحسن القصائد، وقد قال الناس: ما لك تعتزلنا ولا تخالطنا ولا تذهب إلى السلاطين؟ فرد عليهم بقصيدة، قال في بعض أبياتها:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولم أبتذل في مطلب العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأُخدما

إلى أن يقول:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعُظّما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهّما

قال أهل السير: كان أحد العلماء المسلمين طلب العلم، وحفظ القرآن والحديث، ثم أدركه الخذلان، والعياذ بالله.

خرج يوماً يصلي، فنظر إلى بيت من البيوت في دمشق، أو في حمص، فرأى امرأة أطلّت عليه من البيت كشمس الضحى، وكانت نصرانية كافرة، فوقع عشقها في قلبه، فترك المسجد، وعاد إلى البيت، فراسلها، فاشترطت عليه أن لا يتزوجها، إلا إذا ارتد عن الإسلام.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

حاول فيها، فقالت: المهر: أن تترك الإسلام، والمسجد، والقرآن.

فتزوجها، وارتد عن الإسلام، فذهبت به إلى أرض النصارى.

فمر به أحد زملائه، فوجده يرعى الخنازير!

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾.

قال: يا فلان، أين القرآن؟ أين الحديث؟

قال: والله، ما أصبحت أحفظ من القرآن إلا آية واحدة.

قال: ما هي؟

قال: قوله سبحانه وتعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[1].

هذا في العلماء المخذولين، أما علماؤنا فإليكم طرفاً من أخبارهم.

أما تحملهم للمشاق: فأمر عجيب. والله سبحانه وتعالى ذكر موسى، عليه السلام، في القرآن، وأخبر أنه ركب البحر في طلب العلم.

ويوّب البخاري في كتاب العلم (باب) ركوب البحر في طلب العلم، وذكر قصته، عليه السلام، عندما وقف خطيباً في

---

(١) وقد ذكر ابن الجوزي وغيره، أنه تاب وحسن إسلامه، ثم أسلمت امرأته النصرانية.

بني إسرائيل فقالوا له: أتعلم أحداً أعلم منك في الأرض؟

قال: ما أعلمُ أحداً أعلم مني.

فلامه الله، وعاتبه الله على أنه ما رد العلم إلى الله.

فقال الله له: بل عبدنا بمجمع البحرين، الخضر أعلم منك.

فسافر إليه، وطلب منه الخير، كما قرأتم في القرآن.

وكان ﷺ يتابع قصة موسى والخضر في القرآن باشتياق، فلما انتهت القصة، وقال الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ قال ﷺ: **«رحم الله موسى وددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من نبئهما»**[1].

وقال البخاري: وسافر جابر بن عبدالله، رضي الله عنه، شهراً كاملاً في طلب حديث واحد.

سافر من المدينة إلى الصحابي الجليل عبدالله بن أنيس، رضي الله عنه، في مصر.

فلما لقيه في مصر عانقه عبدالله، وقال له: ادخل اجلس، حيّهلا بك وسهلاً.

قال: لا، أنا خرجت لوجه الله، ولا أفسد هجرتي، أريد الحديث الذي سمعته من الرسول ﷺ.

فأخذ الحديث، وهو واقف، ثم ركب ناقته وعاد!

أما سعيد بن المسيب، فيقول عن نفسه: والله الذي لا إلـٰه

---

(١) متفق عليه.

إلاّ هو، لقد كنت أسافر ثلاثة أيام بلياليهن في طلب حديث واحد.

ولذلك بارك الله في علمهم، وبارك في جهدهم.

كانوا يسهرون الليالي، ولم يكن عندهم مما عندنا من الوسائل الحديثة.

فعندنا كهرباء، وعندنا وسائل اتصال، ومطاعم شهية، ومراكب وطية، وملابس حسنة.

ولكن قَلّ التحصيل، ونشكو حالنا إلى الله الواحد الأحد.

ويذكرون عن القفال أحد علماء الشافعية أنه سافر لطلب العلم، وكان عمره أربعين سنة، فلما مشى في الطريق، قال له الشيطان: كيف تطلب العلم في الأربعين؟

فرجع من الطريق، فوجد رجلاً يعمل في سانية، وقد أثّر الحبل في الصخر.

فقال القفال:

اطلب ولا تضجر من مطلب فآفة الطالب أن يضجرا
أما ترى الحبل بطول المدى على صليب الصخر قد أثّرا

وقيل لعامر الشعبي: بمَ طلبت العلم؟

قال: بصبر كصبر الجمال، وببكور كبكور الغراب.

أي: بعد صلاة الفجر مباشرة.

ودخل الإمام أحمد أكثر من ثلاثين إقليماً في طلب الحديث على رجله، ليس معه إلا بقشته، فيها الشعير والملح.

دخل خراسان بمدنها، وسمرقند، وبخارى، وتركستان، وطشقند، والسند، وأطراف الهند، وأطراف أفغانستان، على ما ينقل في سيرته، ودخل مصر بأكثر مدنها، والعراق، والحجاز، وذهب إلى الشام، ثم دخل اليمن، وطاف الأقاليم.

حتى قال بعضهم: لو حُسبت المسافات التي سارها لكانت طوّفت الدنيا.

سافر لعبدالرزاق في اليمن، ولكنه لقيه في مكة يعتمر.

فقال صاحبه يحيى بن معين: هيا بنا، هذا عبدالرزاق قد حضر، نأخذ العلم منه ونعود.

قال أحمد: أنا خرجت لله، وأريد أن يعود عبدالرزاق إلى صنعاء؛ لأذهب إليه، ولتكون سفرتي في سبيل الله.

فلما عاد عبدالرزاق إلى صنعاء سافر إليه الإمام أحمد.

فترك، رحمه الله، لنا (المسند) الذي لو كتب بالدموع ما أنصفناه.

أما الشافعي، فقالوا: أنفق ثلاثين ألف دينار في طلب العلم، وهي ميزانية هائلة.

سكن في بداية عهده مع أمه، وكانت أمه فقيرة، فدخلت به في بيت ضيق، فكان يذهب يطلب العلم، ولا يجد أوراقاً؛ لأنها غالية الثمن، ولم تكن متوفرة، فكان يأخذ الجلود والرقاع، ويأخذ العظام، ويأخذ الصخور الملساء، فيكتب فيها العلم، حتى ضيّق على أمه السكن فقالت: يا بني أنخرج ونترك البيت لكتبك!

ثم ذهب إلى البادية فحفظ أشعار ثلاثين شاعراً، ثم عاد،

فقال له رجل من أهل مكة: إني أراك نابهاً فصيحاً ذكياً، فاذهب إلى المدينة، إلى عالمها، إلى مالك بن أنس فاطلب منه العلم.

فذهب فحفظ «الموطأ» في تسع ليالي.

الموطأ المجلد الكامل، آثاره، وأحاديثه، ومرسلاته، ومقطوعاته، وموقوفاته حفظه في تسع ليالي.

فلما جلس عند الإمام مالك؛ ليقرأ عليه، قال له الإمام مالك: إني أرى عليك نوراً، فلا تفسده بالمعصية.

أما عطاء بن أبي رباح فكان مولى عبد، وكلنا عبيد الله؛ لأن الإسلام لا يعترف بالدماء، ولا بالأنساب، ولا بالألقاب، ولا بالأُسر ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

كانت سيدته امرأة من مكة، فأصيب بالشلل، وأصيب بمرض في جسمه، فتركته، فمكث في الحرم ثلاثين سنة يطلب العلم، حتى برز في العلوم.

ثلاثون سنة يقول: ما رفعت فراشي في الحرم.

ثلاثون سنة ليلاً ونهاراً يطلب العلم حتى أصبح عالم المسلمين.

أما ابن عباس، فكان الأولى أن يُقَدم في هذا الباب، ولكننا نقدمه مهما تأخر لفظاً، فإنه متقدم في الرتبة.

ابن عباس، رضي الله عنهما، كان يقول: ذللت طالباً فعززت مطلوباً.

العلم حربٌ للفتى المتعالي   كالسيل حربٌ للمكان العالي

ما أحسن العلم إذا تواضع المرء في طلبه.

قالوا لابن عباس: كيف حصلت على العلم؟

قال: كنت أخرج من الظهيرة في شدة الحر، فأذهب إلى بيوت الأنصار، فأجد الأنصاري نائماً، فلا أطرق عليه بابه من الظهيرة، فأتوسد بردتي عند بيته، فتلفحني الريح بالتراب، فيستيقظ الأنصاري، فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ ألا أيقظتني أُدْخِلْكَ؟

فيقول: أخاف أن أُزعجك.

قال: فطلبت العلم هكذا.

فأصبح عالم الأمة، رضي الله عنه وأرضاه.

أما زهدهم في الدنيا وإعراضهم عنها:

فالدنيا لمن يعرفها، ولمن يذوقها، ولمن يستمرئها لا تساوي شيئاً.

وأشرف ما تطلبه أنت في الحياة: أن تنقذ نفسك من النار ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

قيل: لأحد العلماء: كيف عرفت الدنيا؟

قال: دلني العلم على الزهد في الدنيا.

وفي حديث حسن: «**ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»[1].

وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا كتاب الله وما والاه أو عالم أو متعلم**»[2].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

وقال عمران بن حطّان الخارجي في الدنيا، وكان شاعراً مجيداً على بدعته:

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراةٌ وجُوَّعُ

أراها وإن كانت تسر فإنها ... سحابة صيف عن قليل تقشّعُ

لما انتصر قتيبة بن مسلم في المشرق أُتي بغنائم كرؤوس الأبقار من الذهب والجواهر والدرر.

فالتفت إلى الغنائم وقال لأصحابه: ما رأيكم لو عرضت هذه الأموال على أحد الناس أيردها؟

---

(١) **صحيح**، رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٤).

(٢) **حسن**، رواه ابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الألباني في المشكاة (٥١٧٦).

قالوا: ما نرى أحداً يردها.

من الذي يرد الذهب؟

من الذي يرفض المال؟

قال قتيبة: والله، لأُرينّكم قوماً من أمة محمد ﷺ، المال عندهم مثل التراب.

فأرسل بها إلى العالم الزاهد محمد بن واسع، وكان معه في الجيش.

فقبلها محمد!

فلما علم قتيبة قال: اللهم لا تخيب ظني فيه.

فقال قتيبة لأحد الجنود: تابع ابن واسع، وانظر أين يذهب.

فتابعه، وقد أخذ الذهب، فمر به فقير من الجيش، وهو يسأل الناس من مال الله، أعطوني.

فأعطاه كل المال.

فذهب الجندي إلى قتيبة فأخبره.

فتبسم، وقال: لقد قلت لكم: إن هناك أناساً من أمة محمد الذهب عندهم كالتراب.

وكان علي، رضي الله عنه، يقول: لقد ارتحلت الآخرة مقبلة وارتحلت الدنيا مدبرة فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

دخل قيس بن أبي حازم على سليمان بن عبدالملك؛ الخليفة الأموي فقال: السلام عليك يا سليمان!

قال: الناس يقولون السلام عليك، يا أمير المؤمنين، وأنت تقول يا سليمان.

قال: لأني لم أبايعك بالخلافة، فأنت بويعت بالخلافة على غير رضىً مني، فكيف أسميك أمير المؤمنين؟

قال: ما لنا نحب الحياة ونكره الموت يا قيس؟

قال: لأنكم عمرتم حياتكم، وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون الانتقال من العمار إلى الخراب.

قال: ما رأيك أن تصحبنا، وأعطيك نصف مُلكي؟

قال: لا. إن الله قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

قال: ونصف الملك؟

قال: كم تعطيني من جناح البعوضة؟ أتعطيني نصف جناح بعوضة؟ وقد قال ﷺ: **«لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء»**[1] ثم خرج وتركه.

وكان سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، يطوف بالبيت فمر سليمان هذا بالموكب والوزراء والأمراء، فلما رآه توقف فاقترب منه، وقال: يا سالم، ألك إليّ حاجة؟

---

(١) **صحيح**، رواه الترمذي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٣).

قال: يا سليمان، أما تستحي من الله؟ تعرض عليّ المسائل في بيت الله.

فتركه، فلما خرج عرض عليه السؤال، قال: ألك إليَّ حاجة؟

قال: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟

قال: بل من حوائج الدنيا، أما الآخرة فلا يملكها إلا الله.

قال: والله، الذي لا إله إلاَّ هو ما سألت حوائج الدنيا من الذي يملكها، وهو الله، فكيف أسألها منك؟

وهذا درس لنا: بأن نعلم أن ما عند الله هو الباقي ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، وأن أفضل ما يمكن أن يكنزه العبد، هو: العبادة، والصلاح، والعلم النافع ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ودخل الوليد بن عبدالملك المدينة فأرسل أعطيات لبعض الناس، ومنهم: سعيد بن المسيب.

فذهب الجندي إلى سعيد، فوجده يصلي ركعتين، فلما سلم، قال: خذ هذا العطاء.

قال: ممن هذا العطاء؟

قال: من الوليد بن عبدالملك.

قال: يسرق أموال المسلمين، ويعطيني العطاء، ويحاسبني الله على عطائه، ربما أراد غيري.

قال: لا، أرادك أنت.

قال: اذهب إليه بالعطاء، وسله: هل يريدني أو يريد غيري؟

فأخذ الكيس، وذهب به.

فأخذ سعيد بن المسيب حذاءه، وخرج من طرف المسجد!!

وأما قولهم كلمة الحق: فإنهم كانوا لا يخافون في الله لومة لائم.

يقول ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حقٍ عند سلطان جائر**»[1] لكن هذه لا يستطيع لها إلا قلائل من أمثال سعيد بن جبير، رحمه الله.

لقد كانت لهم، رحمهم الله، مواقف صلبة في قول الحق.

وكيف لا يكونون كذلك، وسلفهم في ذلك عمر بن الخطاب الذي أقر هذا المبدأ؟

يقف، رضي الله عنه، على المنبر فيقول: يا أيها الناس، ما رأيكم لو حدت عن الطريق هكذا؟

فقام أعرابي عنده سيف عند سارية في آخر المسجد، فقال: يا أمير المؤمنين، والله الذي لا إلـه إلاَّ هو، لو قلت عن الطريق هكذا، لقلنا بالسيف هكذا.

قال عمر: الحمد لله الذي جعل من رعيتي من إذا قلت عن الطريق هكذا قال بسيفه هكذا.

---

(١) صحيح، رواه أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجة (٤٠١١).

دخل الزهري العلاَّمة المحدِّث، راوية «الصحيحين» العظيم مع كثير من العلماء على هشام بن عبدالملك، وكان هشام ناصبياً يبغض علياً، رضي الله عنه.

فقال هشام: يا سليمان بن يسار (أحد العلماء) من الذي تولى كبره؟ أي: في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في حادثة الإفك.

قال: عبدالله بن أبيّ.

قال: كذبت.

فقال: يا فلان، من الذي تولى كبره؟

قال: عبدالله بن أبيّ.

قال: كذبت، الذي تولى كبره هو عليّ.

فقال: يا زهري من الذي تولى كبره.

قال: عبدالله بن أبيّ.

قال: كذبت.

فقام الزهري، وكان جالساً قال: كذبت أنت وأبوك وجدك! الذي تولى كبره: عبدالله بن أبي بن سلول، حدثني بذلك عروة عن عائشة، ووالله لو نادى منادٍ من السماء أن الكذب حلال ما كذبت.

فانتفض هشام، وقال: لعلنا هيجنا الشيخ!

وكان عبدالله بن علي العباسي سفاكاً، والغاً في الدماء والأموال، فسأل وزراءه: أترون أحداً يعترض على ما فعلت؟

قالوا: نظن الأوزاعي يعترض.

فاستدعوا الأوزاعي.

قال الأوزاعي: انتظروا قليلاً، فلبس أكفانه بعد أن اغتسل وتطيب، ولبس ثيابه والأكفان من تحتها.

فدخل على عبدالله بن علي.

قال الأوزاعي: والله، الذي نفسي بيده، لما دخلت عليه أصبح كأنه ذباب في عيني، وكأني أتصور عرش الله بارزاً للناس.

قال: فانعقد في جبينه عرق، وفي يده خيزران، وكانت السيوف قد أشرعت على رأس الأوزاعي.

فقال: يا أوزاعي، ما رأيك في الدماء التي سفكناها؟

قال: حدثنا فلان، عن فلان، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: **«لا يحل دم المسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك للجماعة»**.

فغضب وقال: والأموال؟

قال: حلالها حساب، وحرامها عقاب.

قال: اخرج.

فخرجت.

قال: ارجع.

فرجعت، وانتظرت السيف أن يعلوني.

قال: خذ هذه الصرة، فيها فضة وذهب.

فأخذها فوزعها على الجنود، ثم خرج!

وهكذا فعل الإمام أحمد مع المعتصم.

أما بذلهم للعلم: فهي مسألة نشكو منها.

فنحن نعيش أزمة علماء، وأزمة دعاة؛ لأن منهم من يُقَطر العلم بقطارة، ومنهم من ينفق العلم، وكأنه ينفق من جيبه.

العلماء كثير وكثير، ولكن الساحة تشتكي، فهي تريد أن ينزلوا؛ لأن الأجيال بحاجة لهم.

كان عروة بن الزبير يتألف الناس على الحديث، ويقول لطلابه: من يحضر منكم اليوم فله دينار.

لماذا؟

لأنه يريد أن ينشر العلم الذي عنده؛ لأن العلم حياة، والعلم إذا حُبس ضاع، وإذا حبس نقص فهو:

يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص إن به كفاً شددتَ

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

أما خشيتهم لله عزَّ وجلَّ:

فالله يقول في القرآن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾.

لأنهم تعرفوا على الله، فهابوه، وكل شيء تقرب منه تأمنه إلا الله كلما اقتربت منه خفته.

لذلك تجد الفاجر لا يرهب الله، فهو يضحك، ويمزح، ويعربد بكلام سيىء، ويعصي الله، ويفجر وليس بخائف.

والمؤمن التقي العالم بالله، إذا عصا معصية، أو فعل فعلة، استغفر واستوحش، وبقي في اضطراب، وفزع وخوف وحزن، وهم وغم.

ولذلك يقول ابن مسعود: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها جبل يريد أن يسقط عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب، قال به هكذا فطار من على أنفه.

قال أبو وائل: والله، لقد رأيت جفني ابن عباس من البكاء كالشراكين الباليين.

وورد عنه أنه قام ليلة في الحرم من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر يردد قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾.

وأبو بكر لما نزلت هذه الآية قال للرسول ﷺ: كيف العمل بعد هذه الآية؟ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

فقال ﷺ: غفر الله لك، يا أبا بكر، ألست تهتم؟ ألست تحزن؟ ألست تمرض؟

قال: بلى، يا رسول الله.

قال: **«لا يصيب المؤمن من هم ولا نصب ولا وصب ولا مرض إلا كفّر الله بها من خطاياه»**[1].

قال بعض أرباب القلوب: رُبّ باكٍ دمعت عيناه من البكاء، ولكن لا ينظر إلى نظر الله إليه.

ورب ساكت ساكن، يخاف من وقعات قدمه: أن تطيش به في نار جهنم.

فليس المقصد البكاء، وإنما المقصد: خشية الله الواحد الأحد ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

خرج ابن المبارك الزاهد العابد الشهير، فمر بقصر لطاهر بن حسين في خراسان.

فنظر إلى القصر، وكان مهولاً، فدمعت عيناه، وقال: والله، لقصيدة عدي بن زيد أحب، وأحسن عندي من هذا القصر.

عدي بن زيد شاعر جاهلي يقول:

أيها الشامت المعيّر بالدهر	أأنت المبرأ الموفور
هل رأيت المنايا خلّدن أَمَّنْ	ذا عليه من أين يضام مجير
أين كسرى الملوك أنوشروان	أم أين قبله سابور

وأما تواضعهم لربهم تبارك وتعالى: فإن أكبر ميزة للعالم

---

(١) **صحيح**، رواه أحمد، وأصله في «الصحيحين»، من حديثه، رضي الله عنه.

التواضع؛ لأن العلم كالمال قد يطغى صاحبه ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾.

ولذلك تجد أكبر الناس كبراً وعتواً: المثقفون بلا إيمان من فروخ العلمانية، وفروخ النصرانية، وفروخ الماسونية، وأذناب الشيوعية.

فمن صفة العالم: التواضع الذي يجلب التبسم.

فهو يرحم الضعيف، ويقف مع المسكين، ويقود الأعمى، ويساعد الأرملة، ويخدم بجاهه، وبقلمه، وبكتبه، وبماله، وبوقته.

خرج ابن مسعود من المسجد، فخرج تلاميذه وراءه، فقال: عودوا إلى أماكنكم، والله، لو علمتم ما عندي من الذنوب لحثوتم بالتراب على رأسي.

هذا، وهو ابن مسعود صاحب قيام الليل، والصحابي الشهير، الذي يقول أحد تلاميذه: نمت عنده، فتركني، ثم قام يتلو القرآن كأنه نحلة حتى الفجر.

يقول العلاَّمة الأندلسي يناجي الله في الليل ببيتين فيقول:

يا من سترت مثالبي ومعايبي — وجعلت كل الناس كالإخوان
والله لو علموا قبيح سريرتي — لأبى السلام عليّ من يلقاني

لماذا يتكبر العبد؟

لماذا لا يعود إلى تاريخه المظلم؟

لماذا لا يتذكر سيئاته مع الواحد الأحد؟

تخيل، لو كشف الله مخازيك، وعرضها على الناس، والله لا يتجملون لك، ولا يسلمون عليك، ولا يزورونك، ولا يرحبون بك، ولا يستقبلونك.

فكيف برب العباد الذي يرى الخطأ منك ليل صباح، ويغفر ويعفو ويستر؟

دخل أحدهم على ابن تيمية، شيخ الإسلام، فمدحه، وقال: يا ابن تيمية أنت العالم البحر.

فغضب ابن تيمية حتى احمر وجهه وقال:

أنا المكدي وابن المكدي   وكذا كان أبي وجدي

يقول: أنا فقير، وأبي فقير، وجدي فقير.

وله قصيدة اسمها الفقرية يشكو فيها فقره على الله، يقول:

أنا الفقير إلى رب السماوات   أنا المسكين في مجموع حالاتي

وفي الحديث الصحيح: «**من تواضع لله رفعه، ومن تكبر على الله وضعه**»[1].

فكلما يتكبر العبد يقول الله له: اخسأ فلن تعدو قدرك.

وكلما تواضع قال الله: انهض فقد رفعك الله.

إذا علم ذلك، فإن من مما يميز علماء الإسلام علماء السنة

---

(1) صحيح، رواه أحمد (٧٦/٣)، وابن حبان (١٩٤٢)، وصححه، والحاكم.

على غيرهم، هو: التواضع لله عزَّ وجلَّ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

ولو ذهبت أعدد آثارهم، وحكاياتهم في التواضع لطال المجال.

ولكنّ القوم فيما ظهر من أحوالهم: قد ساروا على خطى قدوتهم وقدوتنا محمد ﷺ، الذي كان يُضرب به المثل في التواضع، كما عُلم هذا كثيراً، حيث كان يركب الحمار، وهو خاتم النبيين.

ويمشي مع الجارية.

ويقوم بأعماله المنزلية.

ويساعد أهله.

بل كان الداخل إلى المسجد ليسأله، وهو لا يعرفه لا يستطيع أن يميزه من بين أصحابه، حتى يسأل عنه؛ لأنه لا يتميز عليهم بثوب أو بجلسة أو بغير ذلك.





بطل المحنة

سير الصالحين مدرسة، أسسها القرآن، ووعتها السنة، ومعنا في هذه الأوراق: صالح من الصالحين، بل إمام الدنيا، وحافظ العصر، وأحفظ أمة محمد ﷺ للحديث.

وعت الدنيا اسمه، وحفظت القلوب رسمه، فما هنالك فيما أظن مسلم يصلي خمس صلوات في اليوم والليلة، إلاّ ويعرف هذا الإمام حتى من أعدائه من الكفار، والمنافقين، فإنهم يعرفونه إلى قيام الساعة.

هو الإمام (أحمد بن حنبل) إمام أهل السنة، الواقف يوم المحنة، الزاهد فيما سوى الله، المتقن للحديث.

فمن هو الإمام أحمد؟ علّنا نقتدي بشيء من سيرته، فإن لم نستطع، فلنحبه في الله، فإن المؤمن يُحشر مع من أحب، والمؤمن والخليل على دين خليله، والله عزَّ وجلَّ يقرن الأصناف مع أصنافهم، والأنواع مع أنواعهم والأشباه مع أشباههم.

أحب الصالحين ولست منهم   لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي   ولو كنا سواءً في البضاعة

ولد الإمام أحمد في آخر القرن الثاني، وعاش في بيت فقير.

مات أبوه، وهو طفل، فكفلته أمه الزاهدة العابدة الصائمة القائمة.

قال أحمد، رحمه الله: فحفظتني أمي القرآن، وعمري عشر سنوات، فحفظ كتاب الله، واستوعاه في صدره، ففرت الوساوس والشياطين من صدره، فأصبح عابداً لله.

وقال أحمد، رحمه الله: كانت أمي تلبسني اللباس، وتوقظني وتحمّي لي الماء قبل صلاة الفجر، وأنا ابن عشر سنوات، ثم كانت تتخمر وتتغطى بحجابها، وتذهب معه إلى المسجد؛ لأن المسجد بعيد، ولأن الطريق مظلمة.

فانظر إلى هذه المرأة الصالحة!

عاش في هذا الجو، وعاش في هذا البيت، وكل همه: أن يعبد الله بكلام الله، وأن يكون عبداً خالصاً لله.

قال: فلما بلغت السادسة عشر من عمري، قالت لي أمي: اذهب في طلب الحديث، سافر؛ فإن السفر في طلب الحديث هجرة إلى الله الواحد الأحد.

قال: فأعطتني متاع السفر.

أتدرون ماذا أعطته من الزاد؟ وكم أعطته من الألوف؟ وكم أعطته من الدراهم والدنانير؟

لقد صنعت له ما يقارب عشرةً من الأرغفة من الشعير، ووضعتها في حقيبة من قماش معه، ووضعت معها صرّة ملح!!

وقالت: يا بني، إن الله إذ استُودع شيئاً لا يضيعه أبداً، فأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

فذهب من عندها من بغداد، من عاصمة الدنيا، من دار السلام.

لماذا ذهب؟ أَذَهَبَ للسياحة كما يفعل اللاهون اللاغون اللعابون؟

أم ذهب إلى التسكع كما يذهب السادرون المخمورون المسكورون؟

أم ذهب إلى ضياع الأوقات والتدحرج على الثلج كما يذهب الذين رُفعت عنهم أقلام التكليف؟

لا، بل ذهب ليبحث عن حديث رسول الله ﷺ.

ذهب إلى مكة والمدينة.

من زار بابك لم تبرح جوارحه   تروي أحاديث ما أوليت من منن

فالعين عن قرة والكف عن صلة   والقلب عن جابر والسمع عن حسن

فذهب، رحمه الله، وقال: مضيت من بغداد على رجليّ إلى مكة، فضعت في الطريق ثلاث مرات، فكنت كلما ضعت استغفرت الله، ودعوت الله.

قال: فوالله ما انتهيت من كلامي، إلا ويدلني الله تعالى على الطريق.

من هو ملجأ الخائفين؟ إنه الله.

من هو منقذ العارفين؟ إنه الله.

فكان كلما ضاع في الصحراء، التجأ إلى الله فليس عنده علامات، ولا بوصلات، ولا خطوط صحراء، بل هي أرض مقفرة يضيع فيها الذكي والبليد.

فضاع الإمام أحمد، ولكن رد اتجاهه إلى الله «**احفظ الله يحفظك**»[1] فلما حفظ الله حفظه الله في سمعه وجوارحه ودينه ومستقبله وسمعته إلى يوم القيامة.

وحفظ الله اسمه للملايين؛ عند مسلمي الصين واليابان والملايو والعراق والجزيرة وسوريا والجزائر، ومسلمي أمريكا،فكلهم يسمعون بأحمد بن حنبل؛ لأنه حفظ الله.

ثم وصل إلى مكة، وأخذ حديث مكة، وبعدها سافر إلى اليمن إلى صنعاء اليمن، إلى عبدالرزاق بن همام الصنعاني يطلب الحديث، وبينما هو في طريقه ضاع مرة رابعة، قال: وانتهت نفقتي من الخبز أما الدراهم فما كان عندي دراهم، فماذا أفعل؟

قال: نزلت إلى قوم أهل مزارع، يحصدون ويصرمون، فأجّرت منهم نفسي ثلاثة أيام، يا سبحان الله! إمام الأئمة الذي يحفظ ألف ألف حديث، كما يقول الذهبي وابن كثير (أي: مليون حديث) ويؤجر نفسه من الحصادين فيحصد لهم.

ووصل بحفظ الله إلى صنعاء، وأخذ الأحاديث النبوية وكتبها.

كان يسهر الليل حتى الفجر، ويصوم النهار حتى الغروب.

---

(١) صحيح، وهو حديث مشهور، سبق تخريجه هنا مرات، وفي غيره أكثر.

يقول ابنه عبدالله: كان أبي يصلي مِن غير الفرائض في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة.

وانظروا «تذكرة الحفاظ» للذهبي، و«سير أعلام النبلاء» له و«البداية والنهاية» لابن كثير، و«تاريخ بغداد»، و«تاريخ دمشق» فكلها متواترة على أنه كان يصلي من غير الفرائض في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة، وكان يسرد الصوم إلا في بعض الأيام.

ووصل إلى صنعاء، فقُدِّم له جوائز من السلطان، ومن الأغنياء، فرفض وأبى وقال: أعمل بيدي، فاشتغل في بعض الصناعات بيده حتى أعطاه الله بعض النقود، ثم عاد إلى بغداد.

أما علمه، رحمه الله، فهو البحر، وحدث عن البحر ولا حرج، **«واتقوا الله ويعلمكم الله»** فالعلم ليس بالمؤسسات، ولا بالشهادات، ولا بالجامعات، العلم: تقوى الله، العلم: طلب العلم من الحي القيوم الذي يقول لمحمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

وقال الله لإبراهيم: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ويقول لداود وسليمان ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ويقول لسليمان: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

فالفهم من عند الله، والعلم من عند الله، والفقه من عند الله، والذكاء من عند الله، فيا من اغتر بشهادته، أو بمستواه، أو بمنصبه، والله، لن تنفعك عند الله جناح بعوضة، العلم: أن تتعلم وتعمل، وتُعلّم الناس ليس إلاَّ، سواء عندك شهادة، أو لم يكن هناك شهادة، سواء تعلمت في مدرسة أو لم تتعلم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾، فعلّم الله الإمام أحمد، فحفظ ألف ألف حديث، يستحضرها كما يستحضر الفاتحة حتى كتب «المسند» من حفظه في أربعين ألف حديث، فهو أكبر مسند في الدنيا، وفي المعمورة، وعلى البسيطة، وبين أيدينا، ولكن من يقرأ «المسند»؟ ومن يطالع «المسند»؟ ومن يتفقه في «المسند»؟ أأهل الصحف اليومية والخزعبلات وأهل الملاهي والملاغي؟ إلا من رحم الله.

وأصبح مطبوعاً لنا طبعة فاخرة، وأصبح معروضاً لنا عرضاً جيداً، وأصبح محققاً في الدواليب عندنا، فوضعناه ديكوراً وزينة.

فيا أمة محمد، من يقرأ «مسند» أحمد؟ إن من يقرأه سوف يجد التقوى والزهد، والرفعة، والخوف من الله وخشية الله عزَّ وجلَّ.

أفتى الإمام أحمد في ستين ألف مسألة، بقال الله، وقال رسول الله ﷺ، وذم المنطق وذم الرأي، وذم الفلسفة والجدل.

أما تواضعه: فمنقطع النظير، وطالب العلم، والمسلم، والعالم والمسؤول، إذا لم يكن متواضعاً لله، فلا تنظر إليه؛ فإن الله قد مقته من فوق سبع سماوات، وقد باء بخزي من الله، إن لم يتب.

كان، رحمه الله، متواضعاً جدّ التواضع.

قال الحفّاظ: رأينا الإمام أحمد نزل إلى سوق بغداد، فاشترى حزمة من الحطب، وجعلها على كتفه، فلما عرفه الناس، ترك أهل المتاجر متاجرهم، وأهل الدكاكين دكاكينهم،

وتوقف المارة في طرقهم، يسلّمون عليه، ويقولون: نحمل عنك الحطب، فهز يده، واحمر وجهه، ودمعت عيناه وقال: نحن قوم مساكين، لولا ستر الله لافتضحنا، نحن قوم مساكين لولا ستر الله لافتضحنا.

والعجيب في الإسلام: أن العبد كلما ازداد تواضعاً لله، كلما زاده الله رفعة، وكلما ارتفع كلما زاده الله حقارة ومهانة، ومذلة جزاءً وفاقاً.

أتى رجل ليمدح الإمام أحمد، فقال له الإمام أحمد: أُشهد الله أني أمقتك في هذا الكلام، والله، لو علمت ما عندي من الذنوب والخطايا لحثوت على رأسي بالتراب، انظر إلى الإمام! انظر إلى العابد!

جاءه قوم فقالوا: يا أحمد، يا ابن حنبل، إن الله قد نشر لك الثناء الحسن، والله إنّا لنسمع الثناء عليك في كل مكان، حتى في الثغور مع الجيش، وهم يقاتلون العدو، ويدعون لك وقت ما يرمون بالمنجنيق، فدمعت عيناه، وقال: أظن أنه استدراج من الله عزَّ وجلَّ، فقيل له: بل هي عاجل بشرى المؤمن.

أما زهده في الدنيا، فقد رفعه عن كثير ممن عاش معه، وأتته الدنيا راغمة إلى باب بيته فأباها.

طُلب منه أن يتولى القضاء فامتنع وقال: إن تركتموني، وإلا فوالله لأهاجر إلى مكان لا تجدوني فيه أبداً.

كان دخله في الشهر سبعة عشر درهماً فيقول: هذه تكفينا.

يقول أبناؤه: يا أبتاه، هذه لا تكفينا.

فيقول: إنما هي أيام قلائل، وطعام دون طعام، ولباس دون لباس حتى نلقى الله الواحد الأحد.

يقول ابنه عبدالله: بقيت حذاء أبي في رجله ثمانية عشر سنة، كلما خُرمت خصفها بيده، وهو إمام الدنيا.

أرسل له المتوكل ثمانية أحمال من الذهب والفضة، حملها الوزراء على أكتافهم مع سرية من الجيش بعد المحنة، فردها، وقال: والله، لا يدخل بيتي منها درهماً ولا ديناراً.

وأما خُلقه، فأحسن الناس خُلقاً؛ لأن من يتعلم صباح مساء من القرآن، ومن يجلس مع القرآن، فسوف يؤثر فيه، ولو طالت السنوات والأعوام.

والذي لا يأخذ أخلاقه من القرآن والسنة، فمن أين يأخذ الأخلاق؟ ومن أين يتعلم الآداب؟ أمن ديكارت، وكانت، وغيرهم من الكفرة الذين نقلوا ثقافتهم إلينا لنتعلم منهم؟ متى كانوا أساتذة؟ ومتى كانوا معلمين؟ بل هم أحقر الناس وأخبث الناس مع الناس.

إنما يُتعلم من وحي السماء؛ الذي أتى به محمد ﷺ.

يقول الإمام أحمد: رحم الله أم صالح (يعني: زوجته وقد توفيت) صاحبتني ثلاثين سنة، والله ما اختلفت أنا وهي في كلمة واحدة.

زوجته في بيته، صاحبته ثلاثين سنة، ما اختلف معها في كلمة واحدة.

أتاه رجل من أتباع السلطان المعتصم، فسب الإمام أحمد أمام الناس، وجدعه وشتمه، وأخزاه بالكلام، ولكن ليس بمخزٍ، إن شاء الله.

فقال الناس: يا أبا عبدالله، يا أحمد، رد على هذا السفيه.

قال: لا والله، فأين القرآن إذن؟ يقول الله عزَّ من قائل: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ هذا هو القرآن الذي يمشي على الأرض.

كان يجلس للناس، رحمه الله، فيتعلمون منه وينظر إليهم ويباسطهم.

قال ابنه عبدالله: دخلت على أبي، وهو جالس في البيت متربعاً مستقبل القبلة، ودموعه تهمل على خديه، فقلت: يا أبتاه، ما لك؟

قال: تذكرت في هذه الغرفة موقفي في القبر وحدي لا أنيس إلاَّ الله.

قال: فأراك متربعاً لماذا لا تتكىء وتريح نفسك؟ (لأنه شيخ كبير)؟.

قال: أستحي أن أجالس الله، وأنا متكىء، أما يقول الله: أنا جليس من ذكرني، أنا جليس من ذكرني.

دخل عليه الأديب الكبير ثعلب فقال له الإمام أحمد: ماذا تحفظ من الأدب والشعر؟

قال: أحفظ بيتين.

قال: ما هما؟

قال: قول الأول.

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل طرفه ولا أن ما يخفى عليه يغيب

فوضع الكتاب من يده، وقام وأغلق على نفسه باباً، وبقي في الغرفة.

قال تلاميذه: والله، لقد سمعنا بكاءه من وراء الباب، وهو يردد البيت:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب

كانت أكبر الأماني في حياته أن يحمل السيف مجاهداً في سبيل الله.

نظر إلى قدميه وقت الوفاة فبكى، وقال: يا ليتها جاهدتْ في سبيل الله.

لكن والله، لقد جاهد جهاداً من أعظم الجهاد، وبذل علمه، وبذل خلقه، وبذل جاهه، وبذل ماله، وبذل كل ما يملك في رفع لا إلٰه إلاَّ الله فكان إمام الدنيا بحق.

قال يحيى بن معين: والله ما رأيت أحداً كأحمد بن حنبل، والله ما أستطيع أن أكون مثله ثلاثة أيام.

وقال الإمام الشافعي، رحمه الله: خرجت من بغداد وسكانها ألف ألف (يعني: مليون) فوالله، ما خلَّفت رجلاً

أتقى لله، وأعلم بالله، وأزهد لله وأورع عن حرمات الله، ولا أحب من الإمام أحمد بن حنبل.

رحم الله الإمام أحمد بن حنبل وأسكنه فسيح جناته وحشرنا في زمرته.

❋ ❋ ❋

فتنة خلق القرآن:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

ويقول عزَّ من قائل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾.

لما قرأ الفضيل بن عياض، رحمه الله، هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبلونا فتفضحنا، فنحن في ستر الله، نسأل الله أن لا يفضحنا، وأن لا يفتنا، وأن يجعلنا في عافية وستر حتى نلقاه.

لكن للفتنة نتائج طيبة، يجعلها الله للصابرين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾.

فالمحنة والفتنة التي تعرّض لها الإمام أحمد رواها أهل التاريخ جميعاً، وسمعت بها الدنيا شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، إلى قيام الساعة، هي: محنة خلق القرآن، أو الفتنة التي أورثها

المأمون في الأمة والقول بخلق القرآن، واختصاراً لتعريف هذه المحنة، فهي:

أن المأمون كان مشوباً برأي منطقي معتزلي.

يقول ابن تيمية: رحمه الله: إن الله لا يغفل عن المأمون لما أدخله من علم المنطق عند المسلمين.

والمأمون الخليفة العباسي ابن هارون الرشيد، قال: بأن القرآن مخلوق، وكذب على الله، فالقرآن كلام الله عزَّ وجلَّ، والله يتكلم بما شاء متى يشاء، لم يزل متكلماً سبحانه وتعالى، يقول عزَّ من قائل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالأمر هنا القرآن.

فقال هذا الخليفة: بأن القرآن مخلوق، واستخدم السيف ليثبت هذه القضية في الأمة، وقتل ما يقارب ألفاً من العلماء الكبار من علماء الأمة. من زملاء الإمام أحمد، وملأ السجون بكافة العلماء، فبعضهم أجاب خوفاً من السيف، وبعضهم رفض وقال: لا أجيب فقُتل في الحال، ومنع التدريس في المساجد، ومنعت الخطابة إلا للمعتزلة، وانتشر الشر الكثير، فنصر الله الإسلام بالإمام أحمد بن حنبل، الذي وقف وحده، وقال: لا والله، القرآن كلام الله. فطلبه الخليفة.

قال الإمام أحمد: أُخذت من بيتي وسط الليل، وأنا أصلي فوضع الحديد في يدي، وفي رجلي، حتى كان الحديد أثقل من جسمي، ووضعت على فرس، فكدت أسقط ثلاث مرات كل مرة أقول: اللهم احفظني، فكان يردني الله حتى أتساوى على الفرس «**احفظ الله يحفظك**»، وكان الجندي الذي معه يضرب الفرس لعل الإمام أحمد يسقط على وجهه.

قال: فلما أُدخلت السجن سُحبت على وجهي، فنزلت فكنتُ أستغفر الله، قال: فلا أدري أين القبلة، ولا أدري أين أنا في ظلام، وفي وحشة لا يعلمها إلا الله، فكنت أقول: حسبي الله لا إلـٰه إلاَّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

قال: فمددت يدي، فإذا بماء بارد، فتوضأت منه، وقمت أصلي إلى الفجر، انظر إلى حفظ الله حتى في الساعات الحرجة، لا ينسى ربه تبارك وتعالى لأنه العون.

فالزم يدك بحبل الله معتصماً　　فإنه الركن إن خانتك أركان

قال: فلما أصبح الصباح حُملت على الفرس ثانية، وما طعمت طعاماً، وكدت أسقط من الجوع، فأُدخلت على المعتصم الخليفة الثاني، الخليفة العسكري، صاحب عمورية، فلما دخلت عليه هزَّ السيف في وجهي، وقال: يا أحمد، والله، إني أحبك كابني هارون فلا تعرض من دمك لنا.

فقال الإمام أحمد: ائتوني بكتاب الله، أو بسنة رسوله ﷺ، فدُعي بالجلادين، ودعي بجَبار من الجبابرة، وقال له: اضرب هذا الرجل، يعني: الإمام أحمد، فجلده مائة وستين سوطاً، حتى غُشي عليه ثم استفاق.

فكان يقول: لا إلـٰه إلاَّ الله، حسبي الله ونعم الوكيل؛ لأنها أطول كلمات، ولأنها قوة هائلة، ولأنها قوة فتاكة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

يقول ابن عباس، رضي الله عنهما: قالها إبراهيم فنجاه الله

من النار، وقالها محمد فنجاه الله من كيد الكفار ﷺ[1].

ورفض أن يجيب حتى تمزق ظهره من كثرة الجلد، فرفع على الفرس وأعيد.

وبقي في السجن ثمانية وعشرين شهراً سرد الصيام في هذه الفترة، كما قال ابنه عبدالله فما أفطر يوماً واحداً.

ثم في الأخير عُرض على السيف، ورفض فلما أعجزهم، وأكلَّهم وأملّهم أعادوه إلى بيته، فأنزلوه، وهو جريح.

يقول ابنه عبدالله: دخل أبونا علينا في الليل بعد ما أُطلق من السجن، قال: فأنزلناه من على الفرس فوقع من التعب، ومن الإعياء، ومن الضعف والهزال، والمرض على وجهه فبقي أياماً، ثم تولّى الخلافة المتوكل، فنصر السنة، وأتى بالمال والذهب إلى الإمام أحمد، فبكى الإمام أحمد، وقال: والله، إني أخاف من فتنة النعمة أكثر من فتنة المصيبة والمحنة، فرفض، وما أخذ شيئاً وبقي على هذا الحال.

وكان يقول: يا ليتني ما عرفت الشهرة، يا ليتني في شعب من شعاب مكة ما عرفني الناس.

فلما أراد الله أن يرفع ذكره قبضه إليه في يوم من أسعد الأيام مرض تسعة أيام، ومحّص الله ما بقي عليه من خطايا ومن ذنوب ومن سيئات، لا يخلو عنها البشر في هذه التسعة الأيام، وفي اليوم الأخير سمع الخليفة أنه مريض، فأمر الناس بزيارته، فانقلبت بغداد العاصمة؛ عاصمة الدنيا، دار السلام، ظهراً وبطن

---

(١) هذا في «الصحيح».

متجهة في طوابير، وفي كتائب إلى بيت الإمام أحمد؛ لتزوره في اليوم الأخير.

فقال أبناؤه: والله، لقد أُغلقت المتاجر حول بيوتنا، ولقد وقف الباعة من كثرة الناس، فرفض الإمام أحمد أن يدخل عليه إلا الصبيان، والمساكين، فأدخلوا الأطفال عليه، فأخذ يبكي ويقبلهم، ويمسح على رؤوسهم، ويدعو لهم، ثم أُدخل عليه الفقراء، فأخذ ينظر إليهم، ويقول: اصبروا فإنها أيام قلائل، لباس دون لباس، وطعام دون طعام حتى نلقى الله.

وفي سكرات الموت التفت إلى طرف بيته، وإلى طرف غرفته، وقال: لا بعدُ، لا بعدُ، لا بعدُ.

فقالوا: ما لك؟

قال: تصوّر لي الشيطان، ورأيته يعض على إصبعه.

ويقول: فتني يا أحمد، فتني يا أحمد، يعني: هربت مني، فقد فتنتُ الناس إلا أنت، فيقول الإمام أحمد: لا بعدُ، يعني: انتظر فإني أخاف على نفسي، فقبضه الله عزَّ وجلَّ.

وكانت آخر كلماته: اللهم اعفُ عن من ظلمني، اللهم اعفُ عن من شتمني، اللهم سامح من ضربني، اللهم سامح من سجنني، إلا صاحب بدعة يكيد بها دينك، فلا تسامحه، وقُبضت روحه، رضي الله عنه وأرضاه.

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

فأمر المتوكل أن يشيعوا الجنازة، ففتحت الثكنات العسكرية لجيش الخليفة، وبقي الناس يتوضؤون من الضحى إلى صلاة

العصر، وحُملت الجنازة، وارتفعت في الصباح من بيته، ووصلت إلى مصلاها قريباً من ضاحية بغداد في العصر من كثرة الزحام.

شيّعه كما يقول أهل العلم: مليون وثلاثمائة ألف، كما أثبتت ذلك التواريخ، وتوقف اليهود والنصارى من بيعهم ذاك اليوم، وهبت ريح على بغداد، حتى قال بعض الجهلة: قامت القيامة، وخرج الجيش، وقوامه: تسعون ألفاً في مقدمة الناس، يرتبون الصفوف، وترددت بغداد بالبكاء من أولها لآخرها، ووصلت جنازته حتى قال بعض أهل التاريخ: كانت تذهب الجنازة على رؤوس الناس تحمل بالأصابع، وتعود إلى المؤخرة، وتذهب وتأتي، فلما وضعت ارتفع البكاء، وقام الناس يصلون عليها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

دفن، لكن ما دفن علمه، ولا تواضعه، ولا زهده، ولا ذكره الحسن؛ فقد أبقى الله له ذكراً إلى قيام الساعة.

قال ابن كثير: رآه أحد الصالحين، فقال: ما فعل الله بك؟

قال: ناداني، فقال: يا أبا عبدالله، الحق بأبي عبدالله وأبي عبدالله وأبي عبدالله.

قلت: من هم؟

قال: بالشافعي، وسفيان الثوري، والإمام مالك. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

***

✿ دروس من سيرة الإمام أحمد:

الدرس الأول: من سيرته، رحمه الله، أن الرفعة من الواحد الأحد، وأن من يحفظ الله يحفظه.

الدرس الثاني: أن الدنيا لا تساوي جناح بعوضة وقد خلقها وما التفت إليها منذ خلقها.

الدرس الثالث: أن العلم النافع: العلم الصحيح، العلم القويم، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

الدرس الرابع: أن من أراد الرفعة، ومن أراد المنزلة، ومن أراد المكانة عند الله، فعليه أن يتواضع، وعليه أن ينزل نفسه، وعليه أن يلغي اعتباراته ليرفعه الله.

الدرس الخامس: أنك كلما سجدت لله سجدة، رفعك بها درجة، وهذا الإمام يصلي لله كل يوم ثلاثمائة ركعة؛ لأن كل سجدة بدرجة عند الواحد الأحد.

الدرس السادس: أن في سير هؤلاء زكاة للقلب، وتربية للروح وهداية إلى الواحد الأحد، فطالعوا أخبارهم، وتلمحوا سيرهم، وكونوا متشبهين بهم، لعل الله أن يهدينا وإياكم سواء السبيل.



حياة شيخ الإسلام
ابن تيمية

هو إمام عملاق، وجهبذ قدير في هذا الدين.

وهو مجدد من المجددين، وزاهد من الزاهدين، وعابد من العابدين، وعالم من العاملين بعلمهم.

هو.. ابن تيمية.

اسمه: أحمد بن عبدالسلام ابن تيمية الحراني، ولد سنة ٦٦٦هـ، وتوفي سنة ٧٢٨هـ، ولكن قبل أن نبدأ في ترجمة الرجل، لا بد أن أبين لكم عناصر لا بد أن تعرفوها:

العلماء هم الدعاة، والدعاة هم العلماء، فلا دعوة إلا بعلم، ولا علم إلا بدعوة.

قال الله تعالى لائماً بني إسرائيل، لمّا توقف علماؤهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

العلم الذي لا ينشر بين الناس، ولا يُنفق منه كنز مشؤوم على صاحبه.

يقول الأندلسي أبو إسحاق يوصي ابنه لطلب العلم، ويمدح العلم:

هو العضب المهند ليس ينبو تصيب به مضارب من ضربت

وكنزٌ لا تخاف عليه لصاً خفيف الحمل يوجد حيث كنت

يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفاً شددت

ولتهاون العلماء بالدعوة هُزمت الأمة.

فما تأخرت أمة الإسلام، ولا انهزمت أمة الإسلام إلا بسبب نكوص العلماء عن إبلاغ دعوة الله، وعدم جلوسهم مع الأمة.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

معنى الآية: أن مثل هذا العالم الذي ما نفع نفسه، ولا نفع الأمة مثل الكلب، فالكلب تجعله في الشمس أو في الظل فهو يمد لسانه أبداً.

* * *

۞ نشأة ابن تيمية:

ولد في بيت ملتزم؛ بيت متقي، بيت عابد زاهد، يريد وجه الله، والدار الآخرة.

ومنذ كان عمره ثمانية سنوات، كان يمرغ وجهه في التراب مع الفجر ويقول: (يا معلم إبراهيم علّمني، ويا مفهم سليمان فهّمني).

فعلّمه معلم إبراهيم، وفهّمه مفهم سليمان، وأعطاه علماً لا كالعلوم، وأعطاه فهماً لا كالأفهام.

علم وفهم اخترق بهما ما يقارب سبعة قرون، حتى أصبح مجدداً لمئات السنون، حتى يقول مستشرق فرنسي يترجم لابن تيمية: (ابن تيمية وضع ألغاماً في الأرض، فجر بعضها ابن عبدالوهاب وبقي بعضها لم يفجر).

* * *

۞ مؤهلاته:

أما مؤهلاته في مجال الدعوة فهي خمس مؤهلات:

١ ـ الإخلاص، والتجرد، والنصيحة، وقصد وجه الله عزَّ وجلَّ، فهو يريد الدار الآخرة، ويريد ما عند الله، وهو دائماً وأبداً ينصح غيره بأنه ينبغي الاعتناء بقوله ﷺ: **«ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل لوجه الله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من وراءهم»**[(١)].

---

(١) صحيح، رواه أحمد (١٨٣/٥)، وعلقه البخاري في «الصحيح»، وصححه الألباني في المشكاة (٢٢٩).

ويقول ابن تيمية: بعض الناس يتعصب لهوى، أو مذهب، أو طائفة، أو حزب، فيجعلها هي المقصودة بالدعوة، وهذا خطأ بيِّن، فإن المقصود بالدعوة، هو: الله سبحانه وتعالى، وليس الحزب، وليست الطائفة، وليست الفرقة، وليس الرأي الذي يدعو إليه.

ويقول أيضاً: من أراد المنصب فليعلم أنه لا يحصل على منصب أعلى من فرعون، ولكن أين فرعون؟ إنه يعرض على النار غدواً وعشياً. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وإن كنت تريد المال، فاعلم أن قارون حصل على مال كثير، لا تحصل عليه أنت، فخسف به الله الأرض، فماذا نفعل؟

قال: فعليك بإخلاص العمل لوجه الله، فإن وجهه هو الباقي وما سواه فاني.

٢ ـ من مؤهلات ابن تيمية: العمل بعلمه، وتقواه لربه تبارك وتعالى، فعلم ليس فيه عمل، وليس فيه خشية، وليس فيه امتثال، إنما هو معلومات مجرّدة يحفظها الإنسان في ذهنه، ولا تنفعه أبداً، ولا تقربه من الله سبحانه وتعالى.

فأما عمله ـ أي: ابن تيمية ـ بعلمه فله جوانب:

الأول: الزهد، فقد كان منقطع النظير في الزهد، فما تولى منصباً في حياته على الإطلاق.

وكان له ثوب أبيض دائم، وله عمامة بيضاء، وكان ربما يرتدي في البرد ثوبين.

يقال: مر في سكة من سكك دمشق، فمر به سائل يسأله

فبحث في جيوبه، فلم يجد شيئاً من الدراهم، ولا الدنانير، فاختفى وراء سور هناك ثم خلع ثوبه الأعلى وأعطاه المسكين!!

يقول صاحب «الأعلام العلية»: تأتيه الدنيا؛ الذهب والفضة والخيول والجواري، إلى غير ذلك، فينفقها في ساعتها، ولا يُدخل ولو درهماً عنده.

الثاني: في الشجاعة: فقد وقف مع سلطان المغول، لما دخل دمشق، وحدثه بقوة وجرأة منقطعة النظير.

ولما دخل التتار بلاد المسلمين، جمع الناس، وقام وسلّ سيفه. وقال: أيها الناس، أفطروا هذا اليوم ـ ليتقووا على القتال ـ ثم تناول كوباً من الماء، فأفطر أمام الناس، فأفطروا، ثم قال للسلطان: عليك أن تنزل الجيش من الثكنات للقتال، فأنزل السلطان الجيش، وبدأت المعركة، وشيخ الإسلام في المقدمة.

وكان يقول: والله، لننتصر في هذا اليوم، فيقول تلاميذه له: قل: إن شاء الله.

قال: تحقيقاً لا تعليقاً.

أما مؤهلاته في عالم الأخلاق، فإن الله قد آتاه الخلق الحسن، لولا الحدة التي تعتريه، والحدة في الرجل لقوته، حتى يقول شاعر اليمن يمدح شيخ الإسلام:

وقاد ذهنٍ إذا سالت قريحته ... يكاد يخشى عليه من تلهبه

وقد كان عنده من الصبر الشيء العجيب.

يقول ابن القيم: مات أحد أعدائه من العلماء فأتيت أبشره.

قال: فاحمر وجهه ودمعت عيناه، وقال: تبشرني بموت مسلم، ثم قام فقمنا معه، حتى ذهب إلى بيت خصمه، فعزّى أهله ودعا لميتهم، فبكى أهل بيته، وتأثروا من هذا الموقف، بالأمس كان أبوهم ألد الأعداء لابن تيمية، واليوم يقول ابن تيمية هذه الكلمات الطيبة. ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾.

٣ ـ المؤهل الثالث لابن تيمية في مجال دعوته: اعتصامه بالكتاب والسنة، ومن ضمن أقواله: وعلى طالب العلم: أن يعتصم بدليل في كل مسألة، وأن يترك كل دليل، أو كل رأي يخالف ما فهمه من كلام المصطفى ﷺ، فإنه المعصوم.

ولما اعتصم بالكتاب والسنة، رزقه الله سبحانه وتعالى تمييزاً وذكاءً وفهماً.

ويقول: أهل السنة والجماعة وسط في الأسماء والصفات، ووسط في الوعد والوعيد، ووسط في الإيمان، ووسط في القدر، ووسط في الأمر بالمعروف، ووسط في الفقه.

٤ ـ العامل الرابع من عوامل مؤهلاته في عالم الدعوة: صدق اللجوء وقوة التوكل.

فقد كان يذكر الله بعد صلاة الفجر دائماً، هذا غذاؤه.

ويقول: لو لم أذكر الله لخارت قواي.

ويقول لابن القيم: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

ويقول: إنها لتصعب عليّ المسألة، فأستغفر الله ألف مرة، أو أقل أو أكثر، فيفتحها الله عليّ.

ولذلك أورد عنه ابن القيم في «مدارج السالكين» أنه كان يقول: يا حي يا قيوم، لا إلٰه إلاَّ أنت برحمتك، أستغيث أربعين مرة، أو أكثر أو أقل.

وذكر عنه الذهبي: أن عيناه كانت كأنها لسانان ناطقان من كثرة الذكر.

وقال الذهبي عنه: لو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت كابن تيمية لصدقت، ولو حلفت من الركن والمقام أنه ما رأى مثل نفسه لصدقت.

وقال له تلاميذه: نراك ما يفتر لسانك من ذكر الله.

قال: قلبي كالسمكة، إذا خرجت من الماء ماتت، وقلبي إذا تركته من الذكر مات!

ويقول ابن القيم عنه: رأيته في السجن، وهو ساجد يبكي، ويقول: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. يرددها طويلاً.

وأما صلاته، فكان يصلي في بعض الأحيان بالناس في مسجد بني أمية في دمشق، فكان إذا قال: (الله أكبر) رفع صوته حتى سمعه من في الطرقات، فتكاد تنخلع القلوب إذا كبَّر.

ويروي ابن القيم في (روضة المحبين)، عن تقي الدين بن شقير، أنه رأى شيخ الإسلام ابن تيمية صلّى صلاة العصر في مسجد بني أمية، ثم خرج إلى الصحراء وحده، قال تقي الدين بن شقير

وكان من تلاميذه: فخرجت وراءه، حيث أراه، ولا يراني، فلما توسط الصحراء رفع طرفه إلى السماء، وقال: لا إلـٰه إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ثم بكى ثم قال:

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس بالسر خالياً

ولذلك يقول ابن رجب: أن من الأسباب التي حمته ومنعته من كيد الأعداء: كثرة الذكر والأوراد؛ التي ما كان يُخلّ بها.

٥ ـ **العامل الخامس**: من مؤهلات ابن تيمية، رحمه الله، في مجال دعوته: معرفته الواسعة بحال عصره وواقع أمته.

فبعض الناس يعيش في هذا العصر، وكأنه يعيش في القرن الثالث، ولكن ابن تيمية يعيش في القرن السابع، ويعرف مشاكله، ومتطلباته، وماذا يريد منه أبناء العصر، ولذلك عرف الكتاب والسنة، وعرف هذا الدين ثم أتى يتكلم بهما للناس بما يحتاجه العصر.

ولذلك كتبه تدل على هذا، ويأتي على رأسها كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم»، الذي سماه محمد حامد الفقي (القنبلة الذرية)!! فهذا الكتاب ألّفه ليواجه به الجاهلية التي كانت في عصره.

فمعرفته لواقعه، وحال عصره، أفاده بأن يضع الدواء على الداء فنفعه الله في ذلك، وقد حلَّ كثيراً من مشكلات عصره، وصحح كثيراً من الأخطاء التي عاشها في عصره، وعالج كثيراً من الأمراض التي رآها في عصره، رحمه الله رحمة واسعة.

❋ ❋ ❋

✪ وسائل دعوة ابن تيمية:

هي وسيلتان:

الوسيلة الأولى: التأليف وهي على ثلاث نواحي:

الرسائل.

والردود.

والمصنفات الكبار.

فالرسائل؛ كأن يسأل عن قضية، فيجيب عليها رحمه الله (كالحموية) لأهل حماه، (والواسطية) لأهل واسط، (والتدمرية) لأهل تدمر، فيرسل الرسائل إلى الناس ينفعهم بها، ويفيدهم، ويقودهم إلى الله عزَّ وجلَّ.

أما الردود، فكان دائماً يرد الفكر والشبه التي تؤثر في أصول الدين ككتاب: (الصارم المسلول)، وسببه: أنه سمع نصرانياً يشتم الرسول ﷺ، فذهب إلى السلطان فشكى النصراني.

فأتى العوام، فقالوا: الحق مع النصراني، والخطأ على ابن تيمية!! فجلده السلطان في المجلس!! ولكن:

إن كان سركم ما قال حاسدنا   فما لجرح إذا أرضاكم ألم

فما دام أن الجلد في سبيل الله، فأهلاً به وسهلاً، فخرج غاضباً من المجلس وكتب: (الصارم المسلول على شاتم الرسول) فأبدع في هذا الكتاب. ورد فيه على اليهود والنصارى.

ومن الردود: «الرد على الأخنائي»، رد عليه في «مسألة

الزيارة»، ورد على السبكي في «مسألة الزيارة».

ومن الردود: «منهاج السنة»، رد فيه على الشيعة الرافضة.

أما المصنفات الكبار: فككتاب (درء تعارض العقل والنقل)، وهذا الكتاب من يقرؤه فهو من أذكياء العالم!

يقول ابن القيم: ما طرق العالم مثل هذا الكتاب.

الوسيلة الثانية:

اللقاء مع الناس، فقد التقى مع العلماء، والتقى مع السلاطين، والتقى مع عامة الناس.

فأما العلماء: فكان يلتقي معهم، ويناظرهم، ويباحثهم، وهذا مستفيض من سيرته.

والتقى مع سلطان الشام، وسلطان التتار وغيرهم.

وأما العوام: ففي دروسه في المساجد، وفي الفتاوى، التي ترده منهم.

❊ ❊ ❊

۞ الصعوبات التي واجهها ابن تيمية:

١ ـ وقوف السلاطين مع خصومه.

٢ ـ جرأته وحدته التي خسر بها كثيراً ممن كادوا أن يناصروه.

٣ ـ خطورة القضايا التي عالجها، فقد تكلم كثيراً في الأصول.

٤ ـ كثرة الخصوم وتعدد الجبهات التي واجهها (الشيعة، الأشاعرة، اليهود والنصارى، الصوفية، المقلدة، السلاطين.. إلخ).

٥ ـ الحبس والسجن، ولكنه ما ازداد به إلا قوة وصلابة.

٦ ـ الجلد والتشهير، فقد جلد، وشهِّر به، وتكلم في عرضه في كل مجلس.

ولكن في الختام، كان نجاح منقطع النظير يحققه ابن تيمية في عالم الدعوة، وينتهي إلى أن يعقد الإجماع من قلوب الموحدين من الأمة على أنه هو رجل الساعة في فترته.

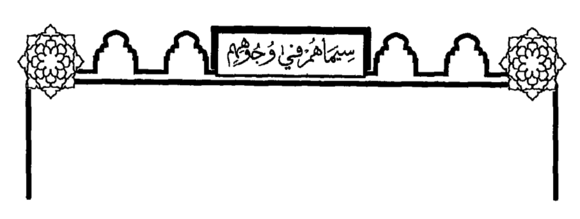
وتحيا كتبه قروناً طويلة تحيي قلوب المجتهدين والعاملين للإسلام.. ليرتفعوا رفعته.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

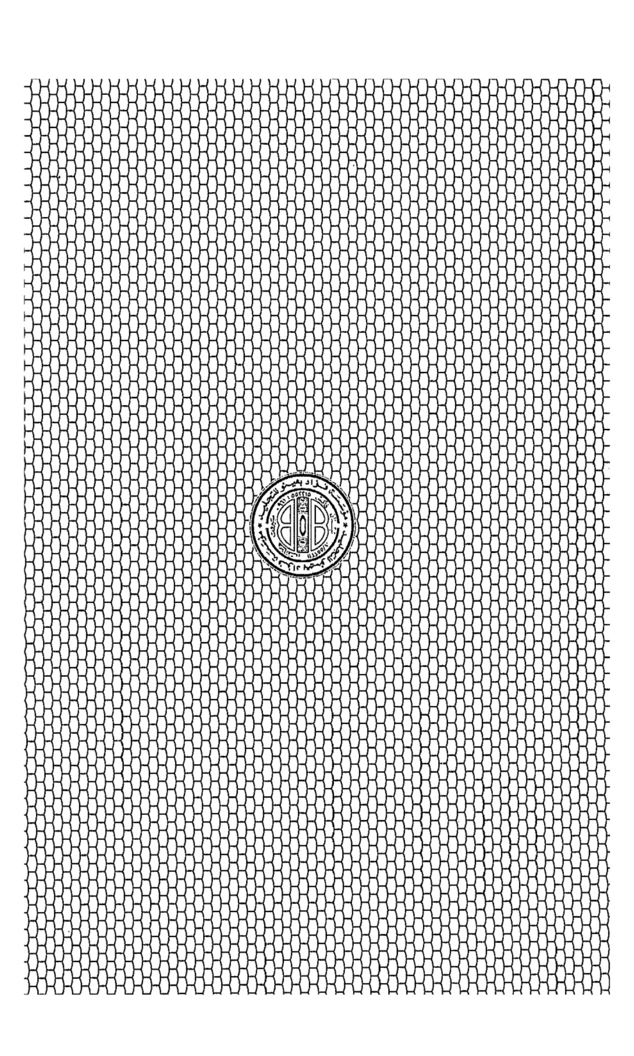
وكتب

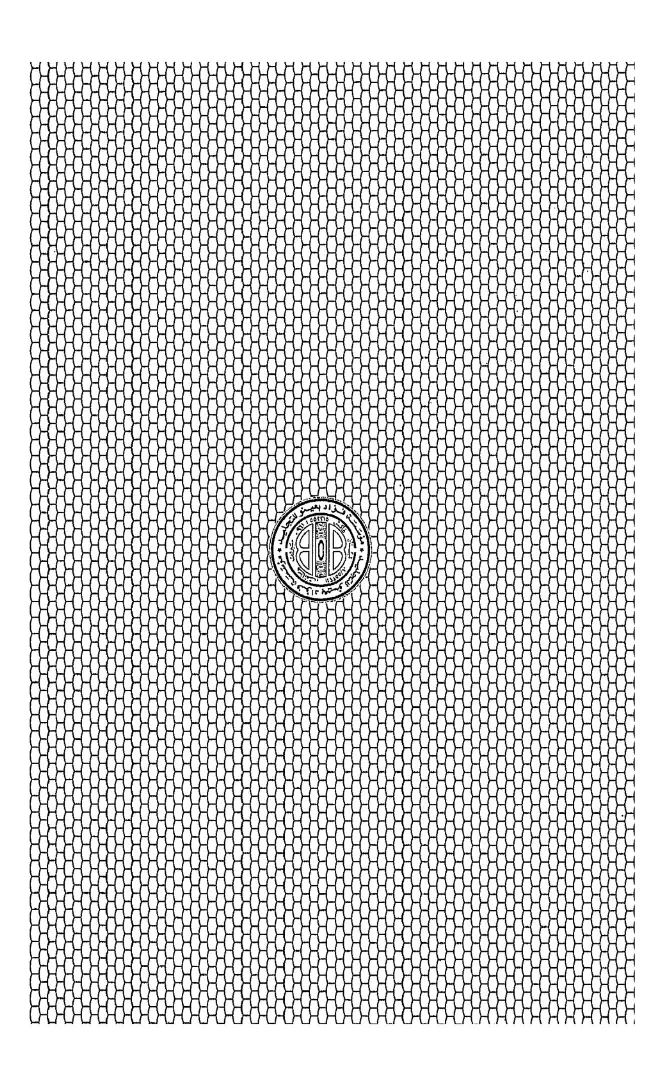
د. عائض بن عبدالله القرني



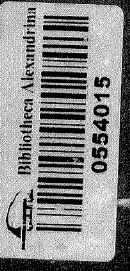


الفهرس






سيماهم
في وجوههم


Bibliotheca Alexandrina
05554015